محمود شاكر

التاريخ الإسلامي

الدولة العباسية

المكتب الإسلامي

التاريخ الإسلامي

-٥-

الدولة العباسية

الجزء الأول

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي

منشورات: ص.ب: ٢٧٩٦/٥ - بيروت - الشلالة - تلفون: ٥١٠٤٠ - هاتف: ٦٢٨٤٨٤

دمشق: ص.ب: ٩٢٠٢ - هاتف: ٣١٣٧٧

عمان: ص.ب: ١٨٢٦٥ - هاتف: ٤٦٦٠٥ - فيكس: ٦٨٤٣٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن الدولة العباسية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبدالله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد:

فإن الشيعة قد نعموا في تشويه تاريخ بني العباس الدور نفسه الذي عملوه في تغيير صفحات بني أمية بالاشتراك مع العباسيين، خصوم بني أمية السياسيين، وحكام العصر الذي دوّن فيه التاريخ. ذلك أن آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها العريض عقد بنو أمية، قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجههم، بل ومن جانبهم الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العباس، ويبارعونهم الأمر، ويحطون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

لقد استغلّ كلّ طامح للسلطة حبّ آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصة فأظهر التشيّع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك. لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكاً فيه كلّ البعد عن الإسلام. وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية)، ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب: ٦/٣٧٩١ - رقيا - اسلاميا - تلكس: ٢٣٠٥١ LE - هاتف: ٦٣٨٠٤٥
دمشق: ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ٧١٦٣٢٧
عمان: ص.ب: ٩٢٠٦٥ - هاتف: ٦٥٦٦٠٥ - فاكس: ٧١٨٥٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن الدولة العباسية

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، محمد بن عبدالله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد:

فإنّ الشيعة قد لعبوا في تشويه تاريخ بني العباس الدور نفسه الذي عملوه في تغيير صفحات بني أميّة بالاشتراك مع العباسيين، خصوم بني أميّة السياسيين، وحكام العصر الذي دُوّن فيه التاريخ. ذلك أنّ آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أميّة، قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجههم، بل ومن جانبهم الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العباس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

لقد استغلّ كلّ طامح للسلطة حبّ آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصة فأظهر التشيّع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك. لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكاً فيه كلّ بُعدٍ عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والخمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية)، ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية

(الإثنا عشرية) التي بدأت تصنع أفكاراً لها، وتبلورها، ثم نسبتها للعصور التي خلت ولرجال الدين معصوما، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرخين المحدثين، وظنوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحملوها عظماء رجال ذلك العهد، أمثال علي زين العابدين بن الحسين، وابنه زيد، وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك. وما جاء القرن الرابع الهجري إلاّ ومذهب الشيع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية، ولم يعملوا على وحدة صفوفهم ذلك لأنهم لم يكونوا فرقة واحدة، ولم يحملوا فكراً واحداً، بل ولا هدفاً واحداً، وإنما كان لكلّ إمارة أو دولة رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدلّ على أنهم رجال طامعون، وأصحاب مصالح وغايات اتخذوا من التشيع وسيلة لهم للسيطرة على الحكم وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك. فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثم أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العباسية، ومع ادعائهم جميعاً للشيعة إلاّ أن دولهم بقيت متفرقة، بل كثيراً ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العهد الأموي، وانصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقرّ لهم، وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كلّ من كان يخفي في نفسه شيئاً. وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلّم بعض الفرس سلطات واسعة، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على هدم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ، والمسلمية، والروانديية، والمقنعة، والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي

مسلم الخراساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادة من وضعه، وطريقة للتخلص بعد أن قدم الذي قدم، وإلى البرامكة وغيرهم، ومن هنا بدأت تبرز قرون العصبة.

وطال عهد العباسيين (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبة فقامت دول على أساسها، ولم يكن لها داع لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد، فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأتها، ثم لها باسم العصبة لدوامها، ودعم الشعب لها.

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافة مستقلة فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدول الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معادية بعضها لبعض، وكل منها على صلة بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم أموي الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفة واحد، والمسلمون جميعاً تضمهم دولة واحدة، وهذا يدلّ على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل وفي الصدر الأول.

وكانت أرجاء الدولة متسعة، وعدد السكان كثيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضمّ أشتاتاً من الناس، وهذا يستدعي جنداً كثيراً يوطد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوحات الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاق واسع كما كان، وإنما في أوقات محددة تقتضيه الظروف، ولهذا فإن السكان لا يرون ضرورة للانخراط في الحياة العسكرية. وكان الخليفة عندها مضطراً لاستقدام جندٍ من مناطق لا تزال

غير مترفة بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقت قصير، أو بأتي بالأسرى والمماليك، ويشتهم ثكنة عسكرية بعد أن يدخلوا في الإسلام. وقد جيء بعدد من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادة. ثم أصبح الأمر بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعينون من أرادوا، فضعفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة. ومن المعلوم أن الترف انصراف عن المهمة الرئيسية للإنسان والتهاء نحو الملذات وجمع المال، والتفاخر بالملبس. وما ذكر أبداً ترف غير، وكثرة المال ابتلاء من الله، فإما أن يحسن الإنسان بإنفاقه وصرفه في وجوه الخير، وطاعة الله، وإما في غير ما أمر الله. وقد ذكر الترف في غالبة مواضع في كتاب الله، تنصب كلها على الكافرين، والمجرمين، والفاسقين. يقول الله تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾[5]. ويقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[6]. ويقول تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير

(١) سورة هود، الآية ١١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية ١٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ٣٣.
(٥) سورة المؤمنون، الآية ٦٤.
(٦) سورة سبأ، الآية ٣٤.

إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾[2]. ومآل الترف إلى الفساد، وضياع السلطة، وانهيار الدولة، وزوال الأمة. وقد زال الأمويون عندما أصابهم الترف، وقامت دولة بني العباس عندما حلّ فيها الترف، وسقطت الأندلس بيد النصارى وضاعت نهائياً بعد أن انصرف السكان إلى الترف...

ومن المعلوم أن الجند إذا أعطوا الحكم استأثروا وتفردوا به، استبدوا، وطغوا، وظلموا. فالجند إنما وجدوا للقتال، والقائد لا يملك طاعة جنده إلا أيام الجهاد وقتال أعداء الله، أما أن يستخدم جمعهم لتحقيق أغراضه، وقتال المسلمين وأمرائهم، وتغيير الأوضاع فهذا أمر لا تستقيم معه الحياة الاجتماعية، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قادة عسكريين على درجة من القوة والصلاح، ولكن لا يلبث الأمر بعدهم أن يعود إلى سابق عهده. فإن الحاكم النظامية الذي يفرض سلطانه بالقوة قد يعطي الحكم هيبة أو سمعة خارجية مدة من الزمن، ولكن بانهيار الوضع بعده مباشرة. لأن النفوس تكون قد ضعفت، واعتادت على الذل الذي ذاقته وقت الطغيان، ومنعت من حرية الفكر، فإن الأرض لا تحرر من الظلم بجموع لا يملكون الحرية، والفكر لا ينتشر على أيدي أناس لا يملكون حرية الفكر، والطغيان يسلب الناس الحرية فيجعلهم عبيداً، ويسلبهم حرية الفكر ليتمكن من السيطرة عليهم، ولهذا تحرص الدول التي تعادي الإسلام أن تحاربه بحكام طغاة من الجند. وتجعل من الجيش مرتزقة مهما تقووا بالسلاح والعتاد إلا أن خسارة معركة واحدة تجعل الهزائم تتوالى عليه إذ تنخفض المعنويات مباشرة. هؤلاء الجند الذين سيطروا على الدولة العباسية قد أضعفوا أمرها، واستبدوا بحكمها، وكانوا سبباً في مقاتلها، رغم أن دعاة

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٣.
(٢) سورة الواقعة، الآية ٤١ - ٤٥.

العصبية قد عدوا هذا الضعف نتيجة سيطرة عناصر من غير العرب، ولكن طغيان الجند لا يختلف بين شعب وآخر، فطغيان العرب كطغيان غيرهم والنتائج واحدة. وما من مرة حكم الجند من أي عنصر كانوا إلا وتأخرت البلاد، وبلا حكمهم تراجع مفاجئ.

وإن كثرة الأموال التي تدفقت على المسلمين زمن الفتوحات، وزادت أعطياتهم، وكثرة المستخدمين الذين جلبوا، والأرقاء الذين أخذوا في الحروب، والعبيد الذين اشتروا، كلهم قد اشتغلوا لسادتهم، وقدموا لهم المال الكثير، ووفروا لهم الراحة، وهو ما جعل السكان في حالة من الرفاهية والرخاء إذ أعطوا أعمالهم كلها للعبيد، وعاشوا هم في راحة فانصرف بعضهم نحو العلم وانتج الخير الكثير، واتجه بعضهم نحو العمران فشيدوا الأبنية، ومال بعضهم نحو المفاسد فعب منها ما شاء له هواه، وتمرغ في حمأتها تمرغ الحيوان في الوحل، وكان هذا بمفهوم الماديين وأنصارهم حضارة، فقالوا: إن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها في العصر العباسي، إذ فسروا الحضارة بمفهومهم المادي البحت فنظروا إلى جانب العلم، والعمران، والمفاسد، وركزوا على جانب من السكان وهم المترفون المرفهون، وتركوا الجانب الآخر وهم الفقراء وما يعانون، وما نجم عن ذلك من حركات، وبالتالي انهارت الدولة وسقطت تحت ضربات المغول، ولم تستطع أن تقاوم لما أصابها من ترف، وذل من طغيان الجند، ونخب من نشوء العصبيات، وخيانة من الشيعة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تاريخ الدولة العباسية قد أعطاه طابعه في التدوين، والحركات التي نشأت، والدول التي قامت، والضعف الذي حدث أربع نقاط هي:

١ ـ الشيعة والحركات الباطنية

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة.

٣ ـ العصبية التي استغل أمرها.

٤ ـ المظاهر الحضارية المادية.

ويجب بحث هذه النقاط الأربع بالتفصيل ليتبين لنا تاريخ الدولة العباسية بشكل أقرب إلى الواقع مما هو عليه من التسجيل الآن.

١ ـ الشيعة والحركات الباطنية

أ ـ الشيعة: ينظر المسلمون إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة احترام وتقدير، وكان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامة، وينحصر آل البيت في أبناء أبي طالب عم رسول الله، الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل رضي الله عنهم، وفي آل العباس عم رسول الله والذي أسلم مع أخيه الحمزة رضي الله عنهما من بين أعمام رسول الله، ولكن الحمزة سيد الشهداء لم يعقب، ولم يشمل آل البيت بقية أبناء أعمام رسول الله من الزبير، والحارث، وأبي لهب، حيث جاء إسلام هؤلاء الأبناء متأخراً، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الله عنه من زوجه فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث انقطع عقب رسول الله إلا منها، هذا إضافة إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الله، وإصهاره لرسول الله، وحتى رأى بعض المسلمين في هذا سبباً في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائه من بعده. ولعل ما في هذا القول من مجانبة عن تعاليم الإسلام، لأن الخلافة ليست وراثية، وإنما لها شروط يفرضها الصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلم تتوفر فيه الشروط، وإن اشترط بعضهم القرشية وليس معهم الدليل.

تسلّم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فهو رابع الخلفاء الراشدين، واختلف مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بشأن قتلة سيدنا عثمان، وقد أدى ذلك الخلاف إلى صراع بين

الطرفين انتهى بمقتل علي رضي الله عنه بيد آفة من الخوارج، وصفا الجو لمعاوية بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة. وكان عام الجماعة عام ٤١ هـ.

اتجهت أنظار المسلمين إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، إذ كان أفضل أهل زمانه، وتوفي عام ٥٠ هـ، وقيل مات مسموماً. وكان أخوه الحسين بن علي رضي الله عنهما بعده سيد عصره، وقد خرج على يزيد بن معاوية فاستشهد في كربلاء عام ٦١ هـ، واستشهد معه اثنان وعشرون من أهله، من إخوته[1]، وأبنائه[2]، وأبناء أخيه الحسن[3]، وأبناء عمومته أولاد جعفر بن أبي طالب[4]، وأبناء عقيل بن أبي طالب[5].

أقام أبناء علي وأحفاده بعد ذلك في المدينة المنورة، وكانوا جميعاً أهل هداية وخير، ولكن المدينة لم تلبث أن ثارت على يزيد بعد أن وصلت إليها أخبار فاجعة كربلاء، فداهمها جيش الشام، وجرت معركة رهيبة بين الطرفين، عرفت بمعركة الحرة، واستشهد فيها اثنان من أولاد عبدالله بن جعفر، وهما: أبو بكر، وعون الأصغر. وبعد مدة قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي عبيد الله بن علي بن أبي طالب.

أما آل العباس فقد برز منهم أبناء عبدالله بن العباس، وأشهرهم علي بن

---

(١) استشهد من إخوته يوم كربلاء: عبدالله، وجعفر، وعثمان، والعباس، ومحمد الأصغر، وأبو بكر.

(٢) استشهد من أبنائه: علي الأكبر، وعبدالله.

(٣) استشهد من أبناء أخيه حسن: أبو بكر، والقاسم، وعبدالله.

(٤) استشهد من أبناء عبدالله بن جعفر: عون الأكبر، ومحمد، وعبدالله.

(٥) استشهد من أبناء عقيل وأولادهم: مسلم بن عقيل قتل كربلاء، عبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل، وعبدالله الأكبر بن عقيل، ومحمد بن مسلم، وعبدالله بن مسلم، ومحمد بن أبي سعيد الأحوص بن عقيل.

عبدالله[1] وكان يقيم بالحميمة من البلقاء من أعمال الأردن.

ويبدو أن عبدالله بن محمد (بن الحنفية) بن علي بن أبي طالب والملقب بأبي هاشم قد عاد من الشام من زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأحس بدنو أجله في الطريق، فعرّج على ابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس[2]، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية للإطاحة بهم (إذ ذكر لأبي هاشم أنه قد سُمّ من قبل سليمان بن عبد الملك فأثار ذلك نقمةً بالغةً في نفسه على بني أمية)، ولم يكن أبو هاشم هذا سيد بني هاشم، كما لم يكن أبوه محمد، ولم يعدّه كذلك إلا الكيسانية أتباع المختار بن أبي عبيد، ولكن سُلّطت الأضواء على أبي هاشم بعد هذه الحادثة، وعدّ سيد آل البيت، وقد مرّ به بسبب ما سُقي من سمّ على أيدي بني أمية لأغراض سياسية.

أثار كلام عبدالله بن محمد ما في نفس محمد بن علي من طموح فبدأ يعمل لذلك، ولكنه لم يدع لنفسه، وإنما جعل الدعوة إلى الرضا من آل محمد حتى منه كي لا يفرق صفوف آل البيت، وحتى يستلم أنصارهم جميعاً في الدعوة، وفي الوقت نفسه يُعفي عن نفسه، وفي الواقع فإن العمل كان له ما دامت الأمور مرتبطة به، ويحرك الدعاة والأنصار حسب ما يشاء، وزيادةً في التعمية فقد بقي هو في الحميمة في الأردن، وجعل مقرّ الدعوة مدينة الكوفة حيث

---

(١) علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ولد عام ٤٠ هـ يوم استشهد علي بن أبي طالب، ويكنى بأبي محمد، وهو جد الخلفاء العباسيين، ومن أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة، فقيه النفس، سخيّ اليد، سمحاً، وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم الهيبة، جليل القدر، أعانه الوليد بن عبد الملك وحرّضه، واحتقله هشام بن عبد الملك، فمات في السجن عام ١١٨ هـ في البلقاء.

(٢) محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، ولد بالحميمة عام ٦٢ هـ، بدأ دعوته سنة مائة للهجرة، كانت تجبى له خمس الأموال من أنصاره يدفعونها إلى النقباء، ويحملها فيما يرى فيه المصلحة، كان عاقلاً حليماً، جميلاً وسيماً، وتوفي بالشراة عام ١٢٥ هـ، وقد أوصى من بعده لابنه ابراهيم، وهو والد السفاح والمنصور.

يقيم كبير الدعاة، ويكثر فيها أنصار آل البيت، ولا يأتي إليه في الخميسة إلا كبار دعاته، ويقرون عليها على شكل تجار، أو حجاجاً إلى بيت الله الحرام، فيلتقون به، ويتلقون التعليمات منه.

وساعد على قيام الدعوة وانتشارها حركة زيد بن علي[1] بالكوفة عام ١٢٢ هـ واستشهاده فيها، ثم قيام ابنه يحيى[2] من بعده في مدينة بلخ[3] عام ١٢٥ هـ بعد أن فرّ من الكوفة إثر مقتل أبيه، ودعا لنفسه سراً، فقبض عليه، ثم اطلق سراحه بأمر من الخليفة الوليد بن يزيد، وسُيّر إلى الشام، فاعتصم في بعض الطريق، وقاتل أنصار الأمويين حتى قتل. وكذلك خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر[4] بالكوفة أيضاً عام ١٢٧ هـ أيام يزيد بن الوليد، ثم انتقل إلى المشرق وقصدته بنو هاشم وفيهم أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور وعمّاهما عبدالله بن علي وعيسى بن علي، وكذلك بعض بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعمر بن هبيرة بن عبد

(١) زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين. ولد عام ٧٩ هـ. من حفاظ بني هاشم، قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً. وكانت إقامته بالكوفة. وفرّ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة)، ذهب إلى الشام، فقتل عنه هشام بن عبد الملك، وسجنه خمسة أشهر، وعاد إلى العراق، ثم إلى المدينة، ومنع به إلى المدينة بعض الكوفيين يحرضونه على الثورة فرجع منهم إلى الكوفة عام ١٢٠ هـ فبايعه بعض أهلها، وقاتله والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، ودارت معارك بين الفريقين انتهت بمقتل زيد عام ١٢٢ هـ بعد أن خذله أهل الكوفة.

(٢) يحيى بن زيد، ولد عام ٩٨ هـ، وكان من الأبطال الأشداء، انتقل إلى بلخ بعد مصرع أبيه، ودعا إلى نفسه سراً، طلبه أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي فقبض عليه نصر بن سيار والي خراسان، وأطلق سراحه بأمر الوليد بن يزيد، وأمر بالسير إلى الشام، فأبطأ بسرخس، ثم انتقل إلى بلخ ثم إلى نسا بور، واجتمع، فقاتله وإليها نصر بن زارة بعشرة الاف، وهي بسبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل نصراً، ثم انصرف إلى هراة، ثم قاتله نصر بن سيار في الجوزجان فقتل يحيى بسهم أصابه عام ١٢٥ هـ.

(٣) بلخ: مدينة في خراسان تقع اليوم في أفغانستان.

(٤) اسمه عبدالله بالرقعة، وكان فاتكاً سيء السمعة.

العزيز بن مروان، وغلب على المشرق حتى تولى أمر بني أمية مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهزم عبدالله، وفرّ إلى خراسان، فقبض عليه عامل عراة من قبل أبي مسلم الخراساني، وقتله خنقاً عام ١٣٢ هـ. وعلى الرغم مما في الخروج على الإمام من مخالفات شرعية إلا أن يظهر كفراً بواحاً، أو يصاب بجنون فإن عامة الناس تنظر نظرة عطف إلى من تحلّ به نكبة، وخاصة إذا كان من أهل البيت، ويدعو إلى إصلاح ما فسد، وهذه العواطف قد هيأت الجو للدعوة العباسية.

وما ظنّ أبناء علي إلا أن لهم في الدعوة نصيباً، فلما قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفاً معادياً للعباسيين، وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانب ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانب آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأوجدوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم من شيعة أبناء علي، وشدّدوا عليهم، واضطهدوهم، وتكلموا برعاياهم وثرواتهم كي يلقوا بينهم الرعب، وأحياناً حاولوا استرضاء بعضهم القضاء وخوفاً من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم فجعلوا لأنفسهم عقيدةً خاصةً بهم اختلفت عن الإسلام، إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعدوهم مخصصين من عند الله، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوّنوا كتباً ونسبوها لسابقين مثل نهج البلاغة الذي نُسب لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أوجدوا فقهاً خاصاً ونسبوه لجعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وهكذا...

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصة الأقوياء منهم والصالحين أمثال هارون الرشيد الذي كان يحجّ أو يغزو، والمتوكل الذي أحيا السنة وعضد الدولة الذي كان قوياً، ولننظر إلى بعض هذه الافتراءات التي يبدو

فيها الاختراع مباشرة. أخرج الصولي في الطبوريات بسنده عن ابن المبارك قال: لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف[1]، فسأله: أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو كلما ادعت أمة شيئاً ينبغي أن تصدق، لا تصدقها فإنها ليست مأمونة. قال ابن المبارك[2]: فلم أدر من أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرج عن جرمة أبيه، أم من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اعتنك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيّره في رقبتي[3]. وذكروا أشياء عن الرشيد وأبي نواس[4] يندى لها الجبين، وأبو نواس في دار الرشيد، ولم يدخل عليه[5]،

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، ولد في الكوفة عام ١١٣ هـ، وتفقه بالحديث والرواية، ثم رأى أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ومات ببغداد في خلافة الرشيد عام ١٨٢ هـ. وهو أول من دعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

(٢) ابن المبارك: عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي، أبو عبد الرحمن، الحافظ، المجاهد، التاجر، الذي عني في الرحلات حاجاً، ومجاهداً، وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ولد عام ١١٨ هـ، وتوفي بهيت على نهر الفرات عام ١٨١، وهو أول من صنف في الزهد.

(٣) تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ص ٢٩١.

(٤) أبو نواس: الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، كان جده مولى للجراح بن عبدالله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، انتقل إلى الأهواز، وتزوج هناك، وأنجب أبا نواس. نشأ أبو نواس بالبصرة، ورحل إلى بغداد، ثم إلى دمشق، وعاد إلى مصر، وعاد إلى بغداد حيث توفي فيها عام ١٩٥ هـ.

(٥) انظر نهار الأغاني لابن منظور - الجزء الرابع ص ١٩٦ طبعة المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٣٨٦ هـ.

وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[1]، فقالوا: إن أبا نواس دخل مرة قصر الخيزران فرأى الرشيد نائماً مُغطّى باستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونبره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرة يا أمير المؤمنين فقد طلبتك السيدة زبيدة - والله -.

وبالجملة الأمين بكثرة شربه الخمر[2]، ثم تراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما نهى إليه أنه يشربها[3].

ولننظر إلى ما قيل عن المتوكل في لهوه وعشقه لجواريه الكثيرات، وهذه الجواري الأديبات الشاعرات اللواتي ينظمن الشعر، ويأتين من أي شاعر بل يقلنه ارتجالاً وبشكل جيد قوي، وسبك متين، ومعنىً جزل، بل لهن كرامات، بحيث يظهر وضع مثل هذه الروايات والتعب في إخراجها بهذه الصورة المبالغ فيها.

وأخرج عن علي بن الجهم قال: أهديت إلى المتوكل جارية يقال لها محبوبة، قد نشأت بالطائف، وتعلّمت الأدب، ورويت الأشعار، فأغرى المتوكل بها، ثم إنه غضب عليها، ومنع جواري القصر من كلامها، فدخلتُ عليه يوماً، فقال لي: قد رأيت محبوبة في منامي كأني قد صالحتها وصالحتني، فقلت: خيراً

(١) زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أم جعفر، زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، وأم الخليفة الأمين، من فضليات النساء، تزوج بها الرشيد عام ١٦٥ هـ، ومات عنها، وقتل بعد ذلك ابنها الأمين، فاضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها فعطف عليها وأكرمها، وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الخدم، وتوفيت عام ٢١٦ هـ، وإليها نسب (عين زبيدة) في مكة، جلبت إليها الماء من أعلى وادي حنين شرقي مكة، وأقامت له الأقنية حتى أوصلته إلى مكة. وكانت أكثر نساء عصرها غنىً وجمالاً، وطريق الحج من بغداد إلى مكة يسمى باسمها (درب زبيدة) حيث المصانع والآبار والقلاع والمنازل من آثارها.

(٢) انظر نهار الأغاني الجزء الرابع ص ٧٣.

(٣) المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١.

يا أمير المؤمنين، فقال: قم بنا لننظر ما هي عليه، فقمنا حتى أتينا حجرتها، فإذا هي تضرب على العود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً ... أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصية ... ليست لها توبة تخلصني
فهل شفيع لنا إلى ملكٍ ... قد زارني في الكرى وصالحني؟
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ... عاد إلى هجره فصارمني

فصاح المتوكل، فخرجت، فأكبت على رجليه تقبلهما، فقالت: يا سيدي رأيتك في ليلتي هذه كأنك قد صالحتني، قال: وأنا والله قد رأيتك، فردها إلى مرتبتها، فلما قتل المتوكل فصارت إلى بغا الكبير، فأمر بها يوماً للمصادمة، فجلست متكئة، فقال: غني، فاعتلت، فأقسم عليها وأمر بالعود، فوضع في حجرها، فغنت ارتجالاً:

أيّ عيشٍ بلذ لي ... لا أرى فيه جعفرا؟
ملك قد رأيته ... في جميعٍ معفرا
كلّ من كان ذا هيا ... م وسقم فقد برا
غير محبوبة التي ... لو ترى الموت يشترى
لاشترته بما حوته ... به يداها لتُقبرا
فإنّ موت المزين أط ... يب من أن يعمرا

فغضب بغا، وأمر بها فسُجنت، فكان آخر العهد بها[1].

وأخرج عن أبي العيناء قال: أهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها

(١) تاريخ الخلفاء - السيوطي - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى ١٣٧١ ص ٢٥٢.

فضل، فقال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: هكذا زعم من يأتي ويشتري، فقال: انشديني شيئاً من شعرك، فأنشدته:

استقبل الملكُ إمامُ الهدى ... عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خلافةً أفضت إلى جعفرٍ ... وهو ابن سبعٍ بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى ... أن تملك الملك ثمانينا
لا قدس الله امرأً لم يقل ... عند دعائي لك: آمينا[1]

وفي حكايةٍ اخترعت حوالي القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جيلة الحمدانية[2]، فامتنعت عليه، فلما أمرها استولى على جميع أموالها، وقيل إنه فرض عليها مالاً، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار العقاب، لتكتب ما تؤديه، حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها، وغرقت نفسها في دجلة[3].

وإذا كان الخلفاء بهذا التهور المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحياناً، وأحياناً أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته، وأبناء عمومته والدين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم.

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) جيلة الحمدانية: جيلة بنت ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل إحدى شهيرات النساء في الكرم والعقل والجمال. لم تتزوج أنفة من أن يتحكم بها الزوج، حجت عام ٣٦٩ هـ. وأنفقت الكثير. ولما تغلب عضد الدولة على أخيها أبي تغلب أمير الموصل عام ٣٦٩، فر أبو تغلب إلى الرملة، ورحلت معه جيلة في جماعة من حاشيته، فخرج عليه أمير طيء (دغفل بن مفرج) فقتل أبا تغلب وحمل جيلة إلى حلب ثم إلى بغداد، فاعتقلها عضد الدولة في حجرة، ثم تركها خلاً وشهر بها، وأطلقها في دجلة، فماتت غرقاً عام ٣٧١.
(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده دار الكتاب العربي بيروت - المجلد الثاني ص ١٢٤.

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدونة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة العظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستوى عما شادته الأمم الأخرى.... أهكذا جاءت ودون تعب ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم تسنت لهم.

حقيقة إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء ولكن التاريخ الذي دُوِّن بأيدٍ مغرضة قد حط من شأنهم كثيراً.

وإن تواري كثير من الطالبيين واختفاءهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت قد جعل كثيراً من الطامعين في السلطة يتسترون أنفسهم لآل البيت حتى يلتف الناس حولهم ثم يقومون بحركات ضد الدولة. ومن هذه الحركات كانت ثورة الزنج، ودعوة العبيديين (الفاطميون)، وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين.

٢ - سيطرة الجند على مقدرات الدولة

لم يكن هناك جند دائمون أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وإنما يهرع المسلمون للانخراط في صفوف الجيش المنطلق للجهاد كلما دعا الداعي، ويُعيّن الخليفة لهم أميراً يطيعونه في غير معصية[1]. والأمير بدوره يختار قادة الجناحين، والقلب، والساقة، وبيت العيون وهكذا. كما يكون حول الخليفة عدد من الأفراد ينفذون أوامره في الحدود، وأمور الحسبة. وقد يكون لزعماء القبائل دور في مساعدة الخليفة أو الأمير، وفي تنفيذ ما يُطلب منهم لإلقاء القبض على بعض رجالاتهم إن دعت الحاجة إلى ذلك - ولم تدع في تلك الأيام -.

وحرص عمر الفاروق رضي الله عنه ألا يختلط المجاهدون (الجند) بسكان المدن كي لا يخلدوا إلى الراحة، ويميلوا إلى الدعة، فأمر أن يقيموا في معسكرات خاصة بعيدة عن المدن، ونشأت نتيجة ذلك مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط. ولعلنا نرى اليوم أثر الجند في المدن عندما يختلطون بالأهالي، وما ينتج عنه من تعدي الجند، وفطرسة الضباط، وأثر ذلك أيضاً على الناحية الأمنية.

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

ولم يختلف الأمر كثيراً في العهد الأموي والعصر العباسي الأول عما كان عليه في صدر الإسلام، ما دامت توجد فتوحات أو غزوات على الأقل، وما دام الخلفاء أقوياء، وللحكم هيبة. فلما توقفت الفتوحات، وقلّ الغزو، وضعف الخلفاء، وذهبت هيبة السلطة اختلف الأمر تماماً، إذ لم يعد هناك جند للجهاد، وبدأت حركات التمرد تحدث، ولم يجد المسلمون دائماً ضرورة للتطوع في سبيل القضاء عليها حتى يُلزموا إلزاماً، كما أن السكان قد مالوا إلى الرخاء بسبب كثرة الأموال التي وردت عليهم، وقيام الرقيق بشؤونهم وأعمالهم، لذا كان على الخليفة أن يجد له جنداً يساعدونه لتنفيذ أوامره، ويكونون له سنداً على حركات التمرد، ومن تسوّل له نفسه بالعصيان. ولم يكن هؤلاء من العرب أو من الفرس لأن كليهما قد عاش في حياة الترف الأمر الذي اضطر معه الخليفة إلى إيجاد هؤلاء الجند من الترك الذين كانت بلادهم قد فُتحت أجزاء منها ولا تزال مناطق واسعة منها في أواسط آسيا تعيش على الوثنية، فيأتي منها الرقيق، ويجلب الأسرى حيث تقوم بعض الغزوات، فيأخذ الخليفة أعداداً من هؤلاء الأسرى أو الإرقاء ممن يجد فيهم ملامح النباهة وعناصر الذكاء، ويربيهم تربية عسكرية، ويستعين بهم في الملمات، وكثر عدد هؤلاء الجند مع الزمن، وقوي نفوذهم لأنهم أصبحوا عصا الحاكم التي يضرب بها خصومه، وأصبح مركز قادتهم عظيماً لأنهم وحدهم يستطيعون أن يوطّدوا الأمن، ويُخضعوا أية قوة مهما علت، ثم غلبوا على أمر الخليفة نفسه حتى قتلوا الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧ هـ. وأصبح الخلفاء بعدئذٍ العصبة بأيديهم يعزلون من شاءوا، ويقتلون من شاءوا، ويقتلون بمن شاءوا، واستمر ذلك حتى جاء البويهيون فسيطروا على السلطة كعسكريين، وكذلك أتى السلاجقة بعدهم، ولم يختلفوا عنهم من حيث الصفة. هؤلاء الجند أمرهم واحد سواء أكانوا عرباً، أم فرساً، أم تركاً، هم عسكريون، فالأمر ليس مقتصراً على جنس أو خاصاً به. فالجندي الذي رُبّي تربية عسكرية، وعاش مع

السلف والرمح، وتعامل معهما، هو غير الذي يسوس الأمور، ويدبّر الشؤون، يلين للشخص، ويقسو على آخر، يستعمل الحكمة، ويضع كلّ شيء في موضعه. والجندي الذي يعيش في الثكنات، ويكون على أهبة القتال في كلّ وقت، ويخوض غمار المعارك حسب الأوامر التي تُعطى إليه هو غير الذي يحيا بين أهله، يخطط للمعركة من وجهة نظر سياسية، ويبحث في النتائج، وما تؤدي إليه. وإن الذي يحيا حياة قاسية قد يقتد على أولئك الذين يعيشون حياة المترفين فيعمل ضدهم، ويحاول أن يسلبهم ذلك، فإذا تم له سار على ما كانوا عليه. وهذا ما يكون من العسكريين في كلّ وقت. وهذا التسلط العسكري على الحكم العباسي في عصره الثاني هو الذي أضعف الدولة لا لأن هؤلاء العسكريين ينتمون إلى شعب غير الشعب العربي كما يدّعي دعاة العصبية العربية.

وعندما خضعت الدولة للعسكريين، وسيطر الجند على مقدراتها بدأ أمرها يضعف، وشأنها يحط، وهذا الأمر دائم. وقد يكتسب مع سيطرة العسكريين بعض الدعاية الخارجية، وأهمية المصطنعة، ولكنه أمر ظاهري ولا بدّ أن ينهار بعد زوال حكم الطاغية أو مع أول معركة، وإن كانت صغيرة، لأن الشعب الذي أُذِلّ لا يمكن أن يقاتل به، والفرد الذي جُوّع لا يمكنه أن يتحرك ويضحّي بأوامر الذين جوّعوه.

ونلاحظ في العصر الحديث أنه عندما تعجز الدول الكبرى على تحقيق أهدافها في بعض الدول الضعيفة لعزّة شعبها وأنفته فإن تلك الدول الكبرى تعمل على إخضاع تلك الشعوب بحكومات عسكرية تنفذ أغراض الدول الكبرى، ولا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهها. ويضع العسكريون الأمور في غير موضعها، ويبذلون الشعب، ويفقرونه، كي يخضع لهم، ويسكت عن تصرفاتهم، وتضعف الروح المعنوية، وتعجز الأمة عن تحقيق أي نصر، والقيام بأي أمر، وهذا ما تريده الدول الكبرى التي تستطيع بعدها أن تحقق كلّ ما

نشاء دون أية مقاومة، مع أن دعاية السلطة قد تكون قوية ولكنها بالكلام والإعلام.

٣ـ العصبية التي استغفل أمرها

بعد أن فتح المسلمون بلاد فارس دان أهلها بالإسلام، وأقبل أهلها أي غالبية أهلها، ولم يكن هذا الدخول واحداً لدى جميع السكان، إذ كان بعضهم صادقاً بإيمانه، وقد أخلص النية، وعمل لدينه بكل طاقاته وإمكاناته، وكان بعضهم دون ذلك، وقد أسلم عن قناعة ويقين، وهذا شأن الغالبية العظمى، ولكن هذا لا يمنع من وجود أشخاص دخلوا في الإسلام تقيةً عندما رأوا دخول الناس في دين الله، أو خوفاً من السيف، وقد أظهروا الإسلام، وأبطنوا المجوسية، ديانة فارس القديمة، ومنهم من اكتفى بذلك، ومنهم من عمل ضد الإسلام، وحاربه تحت قناعه، فإنّ الذين كانوا سدنة النار، وأفادوا من مهنتهم، وضاعت عليهم الفائدة بمجيء الإسلام، كرهوا الإسلام، وحقدوا عليه، وكذا من كان مستفيداً من السلطة سواء أكان من رجالها أم من أنصارها فهؤلاء لم يريدوا أن يفهموا الإسلام، بل لم يرغبوا في بحث الأمر مطلقاً، وإنما نظروا إليه من زاويتهم الخاصة وبما استقر في أذهانهم سابقاً لذا فهم أعداء الإسلام، وإن أظهروه رسمياً، وبقوا على ذلك. وفي كلّ أمةٍ وفي كل شعب يمكن أن توجد عناصر من هذا النوع، ألم تبق عناصر من قريش ضد الإسلام رغم انتصاره؟ ألم تبق أشخاص من المنافقين في المدينة المنورة مقر حكم رسول الله ﷺ، وبين أظهر صحابة رسول الله؟ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم، نحن

بعضهم، بعدهم مرتين ثم يرتدون إلى عذاب عظيم. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم»[1]. بل إننا نشأت عناصر من هذا النوع أثناء المسيرة، وهذا أمر طبيعي، أم يكن لنا اعتراضات على المختار بن أبي عبيد الثقفي وأمثاله ممن ادعوا ادعاءات وادعاءات ولا نزال في القرن الأول الهجري؟ وفي العصور التي تلت ظهر بين العرب كما ظهر بين غيرهم من ادعى النسب، ومن ادعى النبوة، ومن ادعى غير ذلك.

هؤلاء الذين أظهروا الإسلام من الفرس ونقموا على مجوسيتهم، وإن كانوا قلة إلا أنهم قد استفادوا من العصبية، ومن صلتهم ببعض أبناء جنسهم، ومعرفتهم لهم، ما داموا لم يصرحوا بحقيقتهم، وقاموا بأدوار على غاية من السوء. ولكن من طرف آخر نلاحظ العصبية عند العرب - ومع الأسف - فإن دعاتها بدلاً من أن يتحدثوا عن هؤلاء المتعصبين من الفرس، وعقيدتهم الفاسدة التي جمعتهم، وحقدهم على الإسلام، والأدوار الخطيرة التي قاموا بها، فإنهم قد قابلوهم بعصبية أشد منها فانهموا الفرس جميعاً، وجعلوا معاداتهم للعرب والإسلام أساساً لكل عمل، وفسروا كل تصرف هم بهذا.

عمم دعاة العصبية العربية هذا الاتجاه على الفرس جميعاً الأمر الذي جعل العصبية الفارسية تنمو، واستطاع المتعصبون من الفرس أن يدخلوا إلى كثير من الحركات التي تعادي الإسلام، ذلك أن عدداً من الفرس قد بقيت عندهم خلفة جاهلية، وهي أن الحاكم له صفة القدسية، وينتقل الحكم بالوراثة، فأظهروا التشيع لأن الشيعة قالوا بضرورة انتقال الخلافة بعد رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب وأبنائه من فاطمة رضي الله عنها من بعده، ويمكن ملاحظة نسل الحسين من علي بن أبي طالب قد انحصر بولده علي زين العابدين

(١) سورة التوبة ١٠٢.

ابن الحسين والذي أمه سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد وبذا فقد اتصل نسل ملوك الفرس بأحد أعلام آل البيت. وهكذا فإن أئمة الشيعة التي دونت قد حصرت بنسل علي زين العابدين بن الحسين.

وكان من هؤلاء الذين أظهروا التشيع الحركات الباطنية، والذين ادعوا النسب إلى رسول الله ﷺ، وحركات بعض المتصوفة الذين ادعوا القيام بأعمال خارجة عن سنن الكون، وكان لهم شطحات وشطحات، كما قال بعضهم بالحلول، ووحدة الوجود، ورفع بعضهم التكاليف عن أتباعه، ومن وراء ذلك كله العمل على هدم الإسلام.

ويمكن أن نضيف في عامل العصبية إعلان إيران أنها خليفة لدولة فارس القديمة، وإعلان قيام دولة الشيعة فيها أيام اولجايتو (محمد خدابنده)[1] عام ٧٠٤ هـ، ثم أيام الصفويين[2] عام ٩٠٦ هـ، وكان للخلاف المذهبي دوره في هذا الشأن.

كما أن لعامل التاريخ أثر كبير في نشأة هذه العصبية، وهو ما نتحدث عنه الآن: ثم فتح بلاد فارس بعد أن انساح المسلمون فيها إثر معركة نهاوند عام ٢١ هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أن بعض المناطق قد عادت فانتفضت فجدد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتحها، واستقر وضع المسلمين هناك نهائياً. ولما نقل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مركز

(١) اولجايتو بن أرغون بن ابغا بن هولاكو. تولى حكم الدولة الإيلخانية المغولية في بلاد ايران عام ٧٠٤ هـ بعد وفاة أخيه غازان الذي شجع على توليته، ثم اعتنق الإسلام، ومع هذا فقد استمر في قتاله الصليبيين، وهو الذي قاومه ابن تيمية. وكذا فإن اولجايتو قد نشأ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، وتسمى باسم (محمد خدابنده)، وقد نشر المذهب الشيعي في منطقة حكمه، وأصبح الدين الإسلامي هو السائد في دولة الإيلخانات الفرس، ولكن تهرأت هذه الدولة من بعده

(٢) أسس دولة الصفويين اسماعيل الصفوي عام ٩٠٦ وتعرف باسم (القزلباشية)، وكانت شيعية متعصبة

خلافته أن الكوفة كان المشرق يتبعه، وكان عامله على خراسان زياد من أبيه، واستمر ذلك حتى استشهد سيدنا علي. ثم تنازل سيدنا الحسن لمعاوية رضي الله عنه، فأبى زياد أن يأتم بأبيه واقتطع خراسان، ولم يتمكن معاوية من خراسان حتى استرضى زياداً، وقربه منه.

ولم يكن الأمويون أصحاب عصبية عربية وضد الفرس أو الموالي، مع العلم أن الفرس شيء والموالي شيء آخر كما سنعرف فيما - إن شاء الله -، كما تصور ذلك كتب التاريخ التي بين أيدينا. وليس من أمر نستدل به على رأيها سوى حادثة فهمت بشكل غير صحيح، وهي حادثة الخراج الحكمي أيام عمر بن عبد العزيز، وهي أنه قد أخذ الجزية من بعض الناس من المجوس، ثم دانوا بالإسلام بعد مرور مدة من العام فلم يرد لهم ما أخذ عن عامهم ذلك، واجتهد وعد ما أخذ لا يُرد، وإنما تسقط الجزية بعد عامهم ذاك. فرفعوا هذا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقضى لهم، ورد ما أخذ منهم، وأجاب وإليه جوابه الشهير «إن الله بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً».

ولم تكن هناك ضرورة لاستقدام عمال وولاة من فارس إلى بلاد الشام أو غيرها من الأمصار في الخماج الغربي من الدولة الإسلامية، إذ أن كلّ منطقة تكفي نفسها بعمالها وأمرائها وخاصة أن هناك اختلافاً في اللغة. ومع هذا فقد استعمل الأمويون بعض العناصر الفارسية في المواضع التي هم بحاجة إليها. أما في فارس فقد استفاد الولاة من الفرس في كثير من المناصب ومراكز الإدارة. وهذا الأمر عام في مختلف الأمصار الإسلامية فلم يستعمل الأمويون العرب في الشام ولا في فارس، وإنما استعملوهم في المغرب والأندلس. كما أن العباسيين لم يتخلوا عمالاً لهم من فارس إلى غيرها من الأمصار في الخماج الغربي من الدولة.

وأما وجود العناصر العربية في بقية الأمصار فإن الفتوحات الإسلامية الأولى قد قامت على سواعد العرب، وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق

التي دخلوها، بل إن قبائل وبطوناً كاملة قد استقرت في جهة معينة نتيجة وجود كثيرين من الفاتحين من أبنائها. وأما وجودهم في مركز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وبصفة الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وأما ما يُذكر من عداوة الفرس للعرب في اشتراكهم ضد الأمويين في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[1]، وحروب ابن الزبير، وحركة ابن الأشعث[2] فإن هذا الكلام يُعدّ في منتهى التجني على التاريخ، فإذا كانت هذه الحركات قد قامت في هذه المنطقة فهل يُعقل أن يكون أتباعها من العرب، أو الصقالبة؟ أليس سكان المنطقة هم الذين قاموا بالحركة؟ ومن ناحية أخرى فهل كان أتباعها من الفرس أكثر من أتباعها من العرب؟ وهل كان قادتها ومحركوها إلاّ من العرب؟ الواقع أن معظم جنودها وقادتهم كانوا

---

(١) المختار بن أبي عبيد الثقفي: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة زمن عمر بن الخطاب، واستشهد أبوه يوم الجسر، وبقي هو في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم انتقل إلى العراق مع أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وسكن بعده البصرة. وبعد مقتل الحسين أظهر نقمته على عبيد الله بن زياد، فحبسه، ثم نفاه إلى الطائف بعد شفاعة ابن عمر له. وعندما قام عبد الله بن الزبير بالأمر في مكة كان معه، ثم استأذنه بالدعوة له بالعراق، وانتقل إليها، وهناك دعا لمحمد بن الحنفية، وإلى قتل الذين قتلوا الحسين فتبعه الناس، وخرج بهم على والي الكوفة فغلب عليها، واستولى على الموصل، وقتل قتلة الحسين، وهاجم مكة، ثم قتله مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه عبد الله وذلك عام ٦٧ هـ.

(٢) ابن الأشعث: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: سيّره الحجاج لغزو بلاد الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وانتصر، وأخبر الحجاج بذلك، وأنه يسري ترك التوغل في بلادهم حتى يمضي فصل الشتاء البارد، وكي يتعرف على مداخلها، فخالفه الحجاج، وأنبه، وهدده، وأمره بالمضي قدماً، واستشار عبد الرحمن جنده فلم يروا رأي الحجاج، وانقلبوا على نية طاعته، وسايعه عبد الرحمن، ثم خلعوا عبد الملك، واتجهوا إلى العراق، وجرت معارك ضخمة بين الطرفين، هزم في آخرها عبد الرحمن وقتل عام ٨٥ بعد أن دان له المشرق باستثناء خراسان التي عليها المهلب.

من العرب، فلماذا إذن قتال العرب للأمويين أصحاب النزعة والعصبية العربية؟ إن العصبية بين القيسية واليمانية العربيتين كانت أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

وعندما قامت الدعوة العباسية اتخذت الكوفة مركزاً لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون، ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولة ويسر. ثم إن الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على الدعوة في خراسان لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنما لقيام الصراع على أشده بين القيسية واليمانية من العرب حيث يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعاً بهذا النزاع، أو كسب اليمانية التي تشكل أكثرية المجموعة العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيار الذي يعتمد على القيسية ويتعصب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون فعلاً أذناً صاغية في خراسان، وتحركوا من النشاط حتى تم لهم الأمر، ولم تكن خراسان تختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خراسان ليسوا من الفرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأن خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وشمال شرقي ايران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضم اليوم سكاناً من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن صح إضافة إلى ذلك مجموعات من الفرس من السكان الأصليين، ومجموعات من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها. إلا أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان، وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفرس قد جعلنا نتصور دائماً سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبة على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي

قامت الدولة على كاهله، أبو مسلم الخراساني، قد نسب إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن هذا إنما هو اسم حركي، فاسمه ابراهيم بن عثمان.

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركاً. وبشكل طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عالية في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس - مع أنهم أقل من غيرهم - ما داموا يشكلون جزءاً من السكان، وبرز منهم فئة، وظن بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير القادة، وهو أبو مسلم الخراساني. ثم لم يلبث أن حصل نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسلطة سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تركياً، وكما تخلصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلصوا أيضاً من عبد الله بن علي العباسي الهاشمي عم الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأفضلوا التخلص من عبدالله بن علي؟ فكلاهما صاحب أطماع بغض النظر عن فارسية الأول وعربية الثاني.

إن النزاع الذي حصل بين العرب والفرس في العصر العباسي الأول - على زعمهم - ولم يحدث نزاعاً وليس هو بالمعنى العصبي القومي الذي عرفته البلدان الإسلامية في أيامها الأخيرة نتيجة العدوى التي انتقلت إليها من أوربا. وإذا سلطنا الأضواء على ذلك الصراع بين العرب والفرس فلماذا نغفل الخلاف بين القيسية واليمانية؟ وعندما نعلم أن اليمانية وقفت مع الفرس تقاوم الأمويين الذين يدعمون القيسية، عرفنا أن النزاع لم يكن قومياً وإنما لتحقيق الأطماع والمصالح. وهو ما حدث تماماً من خلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس.

وإن النزاع الذي حدث بين التجمعات في العصر العباسي الأول، إنما هو

لكتلات لتحقيق أغراض قبل أن يكون عصبيةً قومية، فقد بقي عدد من الفرس بجانب الخلفاء العباسيين بعد أن ضربوا أبا مسلم الخراساني، والبرامكة وغيرهم، وقام بعضهم بضرب فُرس آخرين، إن القومية العلمانية الحديثة هي التي ركّزت على ذلك التعصب، وزادت فيه، وأعطته تلك الصفة، ووصفت العهد العباسي بنزعة خاصة، إن هذه الصفة وتلك النزعة لم تكن معروفتين بهذاك أبداً.

٤ ـ المظاهر المادية الحضارية

الحضارة هي الاستقرار، والأمن، والسعادة النفسية بتأمين أهداف الإنسان وحاجاته المادية الأساسية المتطوّرة والتي تتفق والمدة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان، والتي تحقق خدمته ورفاهيته، فإذا وُجدت الحضارة نتج عنها ما يُعرف بمظاهر الحضارة، وهي التي يظنّها الناس ـ غلطاً ـ هي الحضارة. وتختلف هذه المظاهر باختلاف تطور الوسائل وباختلاف مفهوم الإنسان عن الحياة وهو الذي ينبع من العقيدة. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطور وحدها، ويعدّون طلب الملذّات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه، وحب الشهرة تقع كلّها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أي ولو أدى ذلك إلى تدمير مجتمع كامل أو قتل أفراد أمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدون الوسائل التربوية والمادية هي مجال التطور، ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشرعية هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الايجابية الصحيحة، أما الوسائل غير الشرعية فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدم وتطور للوسائل، وتهدم بالتالي ما شُيّد من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل هو من نتائج تصوّر الإنسان للحياة وبيان مهمته فيها، وهذا ما تقدّمه العقيدة، فالعقائد المادية تبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من

وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تحصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحق أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادع. وأن الوسائل تتطور في سبيل الحصول على المنفعة المادية سواء أكانت للفرد أم للدولة، ومن وراء المنفعة المادية الشهوة والشهرة وما إلى ذلك، وكل يُسمّي ما يعتقد حضارة. أما الإسلام فقد وضع لكل جدًا يقف عنده بحيث لا تطغى الجماعة على الفرد، ولا ينطلق الفرد بلا حدود، ويبحث الإسلام في النتائج الاجتماعية لسعي المجتمع صحيحاً، ويؤدي دوره في الحياة كاملاً. فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسم لأتباعها تصوراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط، فينشأ التطور، ويحدث التقدم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مهمة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس كانت هناك حضارات مختلفة. فالحضارة المادية ينظر بعض أتباعها إلى سعادة الإنسان في الحياة في حريته الكاملة بغضّ النظر عن مصلحة المجتمع، لذي فهي تُهيء المناخ المناسب لهارس الفرد حريته كاملة، ومن هذه الحرية ينطلق ويُطوّر الوسائل المادية ليتمكّن من تحقيق كلّ ما تصبو إليه نفسه، على حين ينظر بعض أتباع الحضارة المادية الأخرين إلى مصلحة الجماعة ويجعلون الفرد يذوب فيها ويعمل لها، ويطلبون منه أن يعمل ما في وسعه لسعادتها - حسب زعمهم -.

أما الإسلام فيعدّ الإنسان مستخلفاً في الأرض، وعليه أن يقوم بإعمارها حق القيام، ويؤدي مهمته التي أُنيطت به حق الأداء، ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لذا فقد كان على المرء القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما فيها أحسن استغلال، ومن هنا

كانت الحضارة الزراعية، وما يتبعها في كلّ ما يتعلق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعة، وتجارة، ومن مواصلات، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم، وحماية سربهم وقوافلهم.

كما يهتم الإسلام بالإنسان ويكرّمه، ويهتم بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتم بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يعلق فيها من شوائب وخرافات، وحرر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيم، وطيرة، وهامة، ومنع كلّ ما يحول دون انطلاق فكر المسلم، وتحرّره من كل قيد يمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات، والظلم، والاستبداد. ومن الناحية الصحية حرّم الإسلام كلّ ما يؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سموم، ومسكرات، ومخدرات، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات، وهي نار جهنم. وكذا اهتم بالمساواة بين الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس المال، أو الأصول والبيئات، أو المسكن والمكان، أو المهنة والعمل كي لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفة أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ. كما أمر بنشر العدالة بين الرعية، والتعاطف والتراحم بين الجوار وأولي الأرحام ثم بين المسلمين جميعاً. واهتم بالعدل، وعدم النظر إلى منصب الأفراد ومركزهم، والخليفة فرد من المجتمع. كما طلب أولي الأمر بالتواضع وعدم الترفع عن الرعايا، وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلاّ أنه خصّ أولي الأمر منهم، فهم أحق في هذا، وأكثر مسؤولية في ذلك. ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأحوال للسادة والأشراف - كما كان يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعات الدولة إلاّ إذا كانت خدمة

عامة ينال منها الفرد المكلف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتم المسلمون ببناء القصور المنيفة والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة كي لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عن نظرة الكراهية، أو إلى الغني نظرة الحقد والبغض، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيام الأخيرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه. والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لرعاياها، وعن مسكنهم، وطعامهم، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغضّ النظر في عقيدة الأفراد الذين تصيبهم هذه الحالات.

فالحضارة الإسلامية إنسانية تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً. وهي حضارة قائمة بذاتها تنبع من العقيدة الإسلامية، من نظرة المسلم للحياة، ومهمته فيها، وما يُحقق للنفس من سمو، وما يؤمن للمجتمع من رفاه وسعادة، على حين أن بقية الحضارات المادية تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يحقق فيها لنفسه من ترف، وما يتمتع من ملذات، وما يحقق من شهوات وشهرة وبناء عزّ. وتنظر إلى ما شاده القدماء أو المتأخرون من أبنية وقصور، وهياكل ومعابد، وأهرامات ومقابر، وساحات ومسارح، وبقيت شامخة على مدى قرون طويلة تنظر إلى هذه كلها نظرة عادية فهي ليست إلاّ من عمر اليوم لم يُشد لخدمة البشر وسعادتهم، وإنما أقيمت حسب أهواء حكامٍ، وقامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس وتكليفهم ما لا يطيقون.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة قد بلغت أوجها عندما استقرّ الناس، وساد الأمن، وعمّ بينهم العدل، وانتشرت المساواة، وأُمّنت حاجاتهم الأساسية، وانطلقوا لتحقيق أهدافهم ومهمتهم في الحياة بكل رضىً للحصول على السعادة النفسية وهذا ما تمّ في صدر الإسلام فكانت الحضارة العظيمة ومن ثَمّ أخذت تبدو مظاهرها من هذا المنطلق فيما بعد، وللحضارة مظاهر متعددة فهناك مظاهر أساسية هي: العلم والأخلاق والإنتاج، ومظاهر كمالية هي: البناء والعمران، وهناك مظاهر ترفيهية هي: الزخرفة والموسيقى والفن و ... وإذا

وصلت الحضارة إلى المظاهر الترفيهية بدأ الترف أو بدأت نهاية الحضارة وهذا ما حدث في الدولة العباسية حيث بدأت الحضارة تنهار، وسقطت الدولة، ولم تصل الحضارة إلى أوجها كما يتصور الماديون.

عاش الإنسان في أكثر جزيرة العرب قبل الإسلام متنقلاً لا يأمن على نفسه، ولا على عرضه لكثرة الغارات التي تحدث، والأيام بين القبائل التي لا تنتهي، فإذا انتقل الإنسان إلى مدينة واستقر بها، وترك حياة الترحال والانتقال قالوا: إنه تحضّر، فالاستقرار بداية مراحل الحضارة. فلما جاء الإسلام، وأسست دولته الأولى في المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ ساد الأمن، وزال الخوف، وأمن الناس على أنفسهم وعلى أموالهم وأعراضهم، ونال كلّ حقه حيث العدل والمساواة، وحصل على حاجاته الأساسية. وبدأ المسلمون بعد ذلك ينطلقون للدعوة لأفكارهم وعقيدتهم ويحققون بذلك مهمتهم في الحياة بالعبادة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فدانت لهم الجزيرة العربية وانطلقوا خارجها يُتممون مهمتهم، وبهذه الدعوة وهذه الفتوحات كانوا سعداء جداً، وبذا وصلت الحياة في الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين إلى السعادة التامة بحيث لا يريد الإنسان أكثر مما هو فيه ـ حسب زمنه ـ من حيث الحاجات الأساسية والعمل العقيدي من عبادة وجهاد ..... ولما كانت تُحقق لكلّ إنسان كلّ ما يتمناه فهو في سعادة، وهو في أوج الحضارة وعلى قمتها.

وفي العصر الأموي تتابعت الفتوحات، وبقيت أهداف المسلمين تتأمن بالجهاد، وإن ضعفت أسس الحضارة قليلاً، حيث ظهرت بوادر العصبية الجاهلية، وكادت المساواة تبدو ضعيفةً، وهذا الخليفة يتصرف ببعض بيت المال، وزاد هذا في أواخر عهد الأمويين، واستمر الوضع في العهد العباسي الأول، وتوقفت الفتوحات، وتناقصت أعمال الجهاد، إلاّ أنّ ما جاء من أموال بسبب الفتوحات السابقة، وما دخل البلاد من رقيقٍ نتيجة الشراء بسبب الثراء

ونتيجة الجهاد فإن مظاهر الحضارة قد بدأت تنحو منحى جديداً فالذين تمسكوا بأسس الحضارة الصحيحة قد انصرفوا نحو العلم فأنتجوا، وعاش آخرون في الترف والجهوا نحو مظاهر الحضارة الكمالية فكان البناء، والعمران، وشق الأقنية، والزراعة، والتجارة وإن كان معظم ذلك كان يتم بأيدٍ غير أيدي السكان الأصليين من رقيق وزنج جلبوا إلى المنطقة. وانصرف آخرون أيضاً نحو مظاهر الحضارة الترفيهية فعاشوا في الغناء، والموسيقى، والشراب، ونتيجة الترف بدأت الحضارة تتراجع تدريجياً حتى قضى ذلك على الدولة العباسية إذ أن أسس الحضارة في الأمن، والعدل، والمساواة، واحترام الانسان قد بدأت تتراجع، ومع زوال الأسس والأصول تداعت الأغصان والفروع وتساقطت الثمار وبعضها لا يزال فجاً لم ينضج، وبعضها قد جف ويبس بانقطاع السمغ الذي كان يأتي عن طريق الأسس.

ويمكن أن نقول: إن أسس الحضارة وأصولها قد بلغت أوجها في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، وبدأت آثارها تظهر بعد الفتوحات إلا أن الترف قد أعطى آثاراً ترفيهية فتهدمت الحضارة منذ وضح مظاهرها إذ زالت أسسها.

وهكذا فالتاريخ العباسي وقع تحت تأثير الشيعة الذين شوّهوا تاريخ الخلفاء، وغيروا وجه العهد، وفي النهاية سقطت بغداد بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين العلقمي الذي ظاهر المغول وأطمعهم بالسير إلى بغداد ثم سلّمهم إياها. وتحت تأثير العصبية التي جزأت الدولة، وقطعت أوصالها، وتحت تأثير الحكم العسكري الذي أذلّ الخلفاء والرعية على حدٍّ سواء، وحكم بالحذاء، ثم هناك الترف الذي صرف الناس عن غاياتهم.

فالشيعة، والقومية، والحكم العسكري، والترف عصبية الدولة العباسية بالأمس، ومعضلة اليوم.

إنّ حبّ المسلمين لآل البيت، ثم عطفهم عليهم وخاصةً بعد فاجعة كربلاء جعل كلّ طامع يدّعي أنّه يعمل أو يدعو لأحد رجالات آل البيت، ومن بين هؤلاء الطامعين المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في العراق، وسكن البصرة بعده، ثم نفاه عبيد الله بن زياد بعد حادثة كربلاء إلى الطائف بعد أن سجنه مدةً، ثم كان مع ابن الزبير، وتظاهر أنّه من دعاته، وطلب منه السفر إلى العراق ليعمل له، فوافقه، وانتقل المختار إلى العراق، وهناك دعا لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بـ (ابن الحنفية)[1]، ولكنّ محمداً لم يستجب له، وتبرّأ منه، وأعلن كذبه، غير أن المختار ادّعى أنّ هذا الرفض أو عدم الرضا من صفات الإمام. وقد قال محمد ابن علي مرةً عندما بلغه أنّ بعض الناس يزعمون أن عند آل البيت كثيراً من أسرار العلم «وإنّا - والله - ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلاّ ما بين هذين

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم، أمّ خولة بنت جعفر الحنفية ونُسب لها ليميزّ له عن بقية أولاد علي، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة، كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، ويقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأنا أعلم منهما. ولد عام ٢١ هـ، وحمل لواء أبيه يوم صفين، ولم يشهد كربلاء، ورفض بيعة ابن الزبير، وانتقل إلى الطائف هرباً منه، كما رفض بيعة عبد الملك بن مروان، ولما صفا الجو لعبد الملك وبقي خليفةً وحده بايعه، وتوفي محمد بن علي عام ٨١ هـ، ولكن الكيسانية من أتباع المختار تدّعي أنه لم يمت، وأنّه مقيم بجبل رضوى قرب المدينة عنده لبن وماء.

اللوحين، وأشار إلى المصحف. وإنّ من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله فقد كذب». وعلى هذا لم يكن محمد بن علي ليطلب لنفسه الأمر، أو يدّعي الإمامة، وكذا كان ابنه عبد الله[1]، وإن ادعت الكيسانية[2] أنّ الإمامة قد انتقلت إليه بعد وفاة أبيه.

كان بنو أمية يكرمون بني هاشم، ويقطعونهم القطائع، ويعطونهم الأعطيات، ولكن إذا حرّض بعض الناس أحدهم للخروج على الدولة نكّلوا به، ومن حوله. وإذا كنّا لا نقرّ بني أمية في قسوتهم إلاّ أننا في الوقت نفسه لا نرى الخروج على الإمام، أو كلما حلا لأناس الدعوة لشخص دعوه إلى الخروج بحجة أنه الإمام الشرعي ثم قام يدعو لنفسه، ويقاتل الخليفة القائم بالأمر، وإنّ الإمام الشرعي إنما هو الذي أخذ البيعة من المسلمين دون إكراه، ودون وراثة، وفي الوقت الذي لا نرى فيه وراثة بني أمية السلطة ولكننا في الوقت نفسه لا نرى وراثة بني هاشم أو أية قبيلة أو أسرة أخرى فالخلافة ليست ملكاً مخصوصاً، وإن كان من خرج من بني هاشم هو أفضل من حكام بني أمية الذين خرجوا عليهم، لكنه من ناحية شرعية تصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل. وكان خصوم بني أمية للإشاعة ضدهم كلما مات رجل من آل البيت ادعوا أنّ الأمويين قد دسّوا له السم أو عملوا على قتله، ولكثرة الاشاعات، كاد يصدق كلّ ادعاء.

ومن باب إكرام بني أمية لبني هاشم فقد أقطع الوليد بن عبد الملك الخليفة

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، أبو هاشم، كان من وجهاء آل البيت، ولم يطلب الأمر لنفسه، وتوفي عام ٩٩ هـ في الحميمة.

(٢) الكيسانية: فرقة تنسب إلى أبي عمرو كيسان فالت شرطة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وهو من الفرس، وهناك من يقول: إن كيسان لقب للمختار، وهذه الفرقة تدعي انتقال الإمامة من علي بن أبي طالب إلى ابنه محمد، ثم إلى ولده عبد الله أبي هاشم هذا، وترعم أن محمداً لا يزال حياً، وينتظر نزول رضوى.

الأموي «الحميمة» بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء في الأردن لعلي بن عبدالله بن عباس، فأقام بها، واستقر فيها.

ومن هذا الباب أيضاً فقد زار أبو هاشم عبد الله بن محمد بدمشق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقد أكرمه سليمان، وقدّم له الأعطيات، ثم انصرف أبو هاشم متوجهاً إلى المدينة المنورة، وأثناء الطريق شعر بالمرض، وأحسّ بدنو أجله، وحدّث بذلك لمرافقيه، فقال بعضهم لعلّ سليمان قد دسّ لك السمّ، فتوهم بذلك، كحالة كلّ مريض، فانتشر الخبر، وأصبح الشكّ المزعوم يقيناً، فثأر أبو هاشم من بني أمية، وعرّج على «الحميمة»، ونقل ذلك لابن عمّه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية. ولو كان قد وُضع لأبي هاشم السمّ لقضي عليه بشكل سريع، وعادة الملوك أن تضع السمّ الزّعاف، ولكنّ أبا هاشم قد عاش بعد مغادرة سليمان ما يزيد على الشهرين، وذلك عام ٩٩ هـ.

ثم إن الرواة وأصحاب الأغراض قد زعموا أن أبا هاشم قد أعطى محمد بن علي العباسي أسرار الدعوة وتنظيماتها، في الوقت الذي لم يكن له أيّ تنظيم، وإنّ أبا هاشم ووالده محمد بن علي بن أبي طالب لبريئون من الكيسانية، إذ أنّها مارقة منذ ذلك التاريخ. فلم تكن لهم أيّة صلة بالكيسانية التي يدعي الرواة أن بني هاشم قد اتجهوا نحوها.

والواقع أن محمد بن علي العباسي قد وقع في أذنه كلام أبي هاشم موقع الاستجابة إذ أنّه كان رجلاً طموحاً، وكان له أكثر من عشرين أخاً يدعمونه إضافة إلى أبنائه فيشكلون بذلك قوة، كما أنّ أباه علي بن عبدالله بن عباس قد شجّعه على المضي في هذه الطريق، واستمر يشجعه حتى تولى عام ١١٧ هـ في «الحميمة». وعلى كلّ فقد حمل محمد بن علي العباسي على كاهله الفكرة، وبدأ يعمل على تنفيذها.

بن محمد بن علي لمعرفته المكان الذي يجعله قاعدة انطلاق لدعوته، وقد رأى أن تكون بعيدة عن « الخيسية » لتبتعد الأنظار عنه، وبقي الإمام المرشح مجهولاً كي يضمن جمع أكبر أعداد من المعارضين لبني أمية، إذ لو سمّي الإمام لابتعدت عنه مجموعات، ولانتصرت دعوته على فئة واحدة، لأنّ كلّ جماعات ترى رجلاً معيناً من بني هاشم، وعلى هذا فقد جعل دعوته هاشمية وإلى الرضا من آل محمد، فهي تشمل بذلك أبناء علي، كما تشمل أبناء العباس، وتضم أبناء جعفر وغيرهم. ووقع اختياره على مدينة الكوفة إذ أنها قاعدة الناقمين على بني أمية حيث فيها كثير من أنصار أبناء علي أولاً، ثم إن هذه المدينة قد قتل من أبنائها الكثير مع مسلم بن عقيل[1]، ومع المختار الثقفي، ومع مصعب بن الزبير[2]، ومع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ومع الخوارج ... وقد يقوم أهل هؤلاء بقتل جميعاً على بني أمية، وعندهم الاستعداد للثورة في كلّ آن تسمح لهم الفرصة فيه، أو تخفّ وطأة الحكم الأموي عنهم.

ورأى أن خراسان تقع في مشرق الدولة، وإذا دعت الظروف يمكن أن يفرّ من يريد إلى بلاد الترك المجاورة، كما فعل من قتل ابن الأشعث وغيره. وفي خراسان يشتدّ الصراع بين العرب بين القيسية واليمانية، فيمكن الإفادة من هذا الصراع وجلب الجماعات الناقمة على هذا النزاع، والتي تريد أن تقضي

---

(١) مسلم بن عقيل بن أبي طالب، تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة، كان عمّاً بالكوفة، أشخصه الحسين بن علي رضي الله عنهما إلى العراق ليتعرف على أحوال أهل الكوفة، فسار إليها، وأخذ بيعة كثيرة عشر ألفاً من أهلها، وشعر أمير الكوفة من قبل الأمويين عبيد الله بن زياد، فطلبه، فسلّمه الناس، لم يغدروا به، فاختفى في بيت امرأة، لم يعرف مكانه، فدلّ عليه ابن زياد، وقتله عام ٦٠ هـ.

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله، ولد عام ٣٦ هـ، أحد ولاة الأبطال، تولى أمر البصرة لأخيه عبد الله عام ٦٧ هـ، قتل المختار الثقفي، وغزا فارس، ثم أمد إليها، فاستقل بأمر الكوفة. وخرج إليه عبد الملك بنفسه، بعد أن فرّ جيش الشام أمام مصعب، وانتهت معركة قرقيسيا بقتل مصعب عام ٧١ هـ.

عليه، وتتخلص منه، والجماعات التي يؤلمها هذا الصراع الداخلي الذي يحاربه الإسلام، فهو عصبية فتنة.

ويكثر في خراسان الموالي وهم الذين كانوا أرقاء بغضّ النظر عن أصولهم سواء أكانوا عرباً أم عجماً على خلاف ما يقوله المؤرخون المحدثون من أن الموالي هم المسلمون من غير العرب. فزيد بن حارثة[1] رضي الله عنه كان مولى رسول الله ﷺ، وهو عربي. والمقداد بن عمرو[2] رضي الله عنه كان مولى الأسود بن عبد يغوث الزهري، وهو عربي. وقد يكون المولى بالحلف فعبد الله بن جحش رضي الله عنه[3] حليف بني عبد شمس وهكذا فالموالي إذن ما كان أصلهم أرقاء ثم اعتقوا، أو ما كانوا قد تُبُنّوا من قبل أحد، أو ما كانوا أحلافاً لقبيلة ذات مكانة، وذلك بغضّ النظر عن أصولهم وألوانهم وسواء أكانوا من العرب أم من الأعاجم، أم كانوا من سود اللون أم من البيض. وخراسان عندما فُتحت وقعت أعداد كبيرة من أبنائها في الأسر، فكانوا أرقاء إلاّ أن الإسلام قد فتح طرقاً عديدة للعتق كتكفير للأيمان، والذنوب، والظهار وغير ذلك إضافةً إلى التقرب إلى الله، ثم هناك المكاتبة لتحرير الرقيق نفسه، ولم تمض مدة إلاّ وأضحى الأرقاء أحراراً، وكانوا

---

(١) زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي: صحابي، اختُطف في الجاهلية صغيراً، واشتراه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ووهبته إلى رسول الله ﷺ حين تزوجها فتبناه النبي ـ قبل البعثة ـ وأعتقه، وزوّجه ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان رسول الله يحبّه، يقدّمه، وما بعثه في سريةٍ إلاّ أمّره، واستشهد في مؤتة عام ٨ هـ.

(٢) المقداد بن عمرو الكندي البهراني الحضرمي: صحابي، من أهل بدر، ومن السابقين في الإسلام، كان في الجاهلية من سكان حضرموت فوقع بينه وبين ابن شمر بن حجر الكندي خصام فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فتبناه الأسود الزهري حتى عرف بـ، وتوفي المقداد رضي الله عنه عام ٣٣ هـ على مقربة من المدينة المنورة.

(٣) عبد الله بن جحش: ابن عمة رسول الله ﷺ أميمة، من المسلمين الأوائل، ومن الأمراء الأشداء، استشهد يوم أحد في السنة الثالثة للهجرة، ودفن مع خاله الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

موالي. وكذا الأبناء، فالأبناء وهم في مقتبل العمر كانت حالتهم المادية لا تزال ضعيفة، الأمر الذي يجعلهم يميلون إلى الثورة، بل ويحقدون على الأغنياء، والشباب الصغار هم دائماً وقود الثورات، والقوة المحركة لها.

ولم يكن الناس قد اتجهوا إلى الزراعة بعد بشكل جيد، أو عادوا إليها بعد الانصراف إلى الفتوحات وأعمال الغزو، وبالتالي فإن الدولة لم تكن بعد قد أولت الزراعة عنايتها لاتجاهها إلى الفتح وإلى قمع الحركات التي تحدث بين الحين والآخر، وهذا ما جعل الحياة المادية في الريف دونها في المدن فاتجهت أعداد من الشباب نحو الحواضر ليجدوا حياة أفضل، هؤلاء وأولئك يمكن الإفادة منهم في كل حركة، وهم أول ما اتجهت إليهم أنظار محمد بن علي العباسي. ولم تتوجه إلى العرب الذين استحكمت بينهم العصبية إذ يمكن نتيجتها أن تعرف أسرار الدعوة، ويظهر ما يجب إخفاؤه، ثم إن ترف أكثر العرب هناك يجعلهم لا يفكرون بتنظيمات سرية، وليس لهم طموحات سياسية، وفي الوقت نفسه لا يبحثون عن تغيير الأوضاع اجتماعية قائمة أو لتحسين أحوال مادية هم في غنى عنها، إذن لم يكن انصراف محمد بن علي العباسي عن العرب كراهية لهم، كما يزعم المؤرخون المحدثون، ولا حباً بالموالي أو الفرس، أو الترك، وإنما انصرف إلى الذين يمكن أن يؤمّن لدعوته النجاح بواسطتهم، فكان التجاهه إلى الموالي، على حين كان أغلب النقباء من العرب. فالعرب قادة الدعوة والشباب من الموالي من جنودها ووقودها.

ورأى أن تكون الكوفة مركز الدعوة، ويقيم فيها كبير الدعاة، أو كما أسماه داعي الدعاة، وأن خراسان يمكن أن تكون مجال انتشار الدعوة ـ كما ذكرنا ـ وهذا ما يضمن لنفسه زيادة في السرية والدعاته كذلك، فأخبار خراسان تأتي إلى الكوفة، ومن الكوفة تنتقل إلى الحميمة، ويكون القدوم لمن يريد من الدعاة على شكل تجار أو حجاج، وتُرسل الأوامر والتعليمات عن طريق الكوفة أيضاً.

وبعد الصالات قام بها محمد بن علي العباسي أرسل في عام مائة ميسرة العبدي إلى الكوفة ليكون داعي الدعاة فيها، وأرسل إلى خراسان أبا عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وأمرهم بالعمل والبدء بالدعوة، فنالوا بعض النجاح، فأرسل دعاة خراسان يكتب من استجاب لهم إلى ميسرة العبدي بالكوفة، وقام هو بدوره فأرسلها إلى الحميمة.

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي العباسي اثني عشر نقيباً، وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن ابراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان ابن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن اسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعين أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الفروي ـ مولى لبني حنيفة ـ، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ. واختار سبعين رجلاً أيضاً[1]. بحيث يكون لكل داعية اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيب سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرة يقتدون بها ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضح أنهم من أرومة عربية، ومن قبائل عربية معروفة مشهورة، وهذا ترد ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام ابراهيم ابن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربية، واعتمدت على العرب. فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع

يتكلمون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أعداد علماء العربية؟ إن هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تركياً، بل يذكر المؤرخون أن ابراهيم بن محمد حين وجه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨ هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واعلم ربيعة في أثرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، والذل من حيث وقعت به، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وإذا غلام يدع حبسة أشار بيديه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتب به إلي»[1].

واحب هنا أن أوضح نقطة أخرى وهي أن خراسان لم تكن فارسية خالصاً كما يتصور المؤرخون وإنما كان يسكنها تركٌ، وفرسٌ، وعربٌ، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فتحت فتحاً فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو. وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس. وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ ـ أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ ـ إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدة منها عن لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧ والمعروف بضعفه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: أخباري تالف لا يوثق به.

٣ ـ تركستان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأميورد، وهشتاد اباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإذا كانت سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا يحرب دائم مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدة طويلة من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في الشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تتطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥ هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمة كبيرة، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧ هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ولما صنهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧ هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعية لبني العباس، إلا أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩ هـ.

وعزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يشكلون نسبة كبيرة بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عوانة، ثم أنشر بن عبد الله السلمي، ولم

بكل عصبيتها واضحة، كما أن أولها لم ترد مدة حكمه خراسان على مدة اثنين، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ الشرطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفسح يده الأعوان، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١٨ هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبية مضرية، وتخوّف من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت بريد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد تولى بسبب مرض ألمّ به في بطنه عام ١١٦ هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مدة على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بقسمها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فقسمها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرة ثانية، ولم يستمر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان ثانياً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، ولكن من القاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن نرزق، وخالد بن ابراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨ هـ، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنا أناس من قومك،

وإنما هذه المضرية إنما رفعوا اليك هذا لأنا كنا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»[1].

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين ألقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي فاستجاب له كثيرون، فلما التفوا حوله دعاهم إلى عقيدة الخرّمية الزنادقة، ورفع عن أتباعه التكاليف، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أنّ محمد بن علي يأمرهم بهذا، وكذب عليه، وذلك عام ١١٨ هـ، وانتصرت عليه الدولة، فقطعت يده، وسلّ لسانه، ثم صلب.

وحدث انقطاع بين الحميمة وأتباعها في خراسان، هذا الانقطاع بسبب ما أحدثه خداش، وسيّر أنصار الدعوة وراءه، ودون الأخذ على يده، الأمر الذي أبعد الفكرة عن الإسلام، وأظهرها بمظهر الكفر والإلحاد، ثم لشدة أسد ابن عبدالله عليهم حتى لا ينكشف الأمر تماماً. وبعد مقتل خداش شعر أتباع العباسيين بخطئهم، وندموا على ما فعلوا من سيرهم وراء هذا الزنديق، وأرسلوا كبيرهم، وهو سليمان بن كثير، ليعتذر لهم عن ذنبهم، ويرفع للإمام توبتهم، وندمهم على ما قاموا به، وعندما عاد سليمان بن كثير من الحميمة كان يحمل كتاباً مغلقاً، ولما فتحوه لم يجدوا فيه سوى «بسم الله الرحمن الرحيم، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرّمي». ثم أرسل إليهم بكير بن ماهان نفسه فلم يصدقوه، وهمّوا به، إذ أصبحوا يشكّون في كلّ داعية بعد خداش،

(١) تاريخ الطبري - الجزء التاسع.

ولكن بكيراً لم يرد أن يصطدم بهم، وعاد إلى الخميمة فأرسل لهم الإمام معه عصا مدوية عليها حديد ونحاس فعلموا أن هذه إشارة إلى أنهم عصاة. وكان ذلك عام ١٢٠ هـ.

ولي العام نفسه توفي أسد بن عبدالله، واستناب مكانه جعفر بن حنظلة، ثم عزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق وخراسان، وولّي يوسف بن عمر الثقفي، فولى على خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله، وولّى نصر ابن سيار، وكان نصر ذا عصبية مضرية، وهذا ما جعل اليمانية تعالي الثمن الكثير، فتوجه أنصار الدعوة العباسية نحو اليمانية، واستمر الوضع حتى عام ١٢٥ هـ لا يتقدم إلا ببطء. هذا إضافة إلى أن حركة زيد بن علي زين العابدين كانت قد قامت في الكوفة عام ١٢٢ هـ، وفشلت، وكان لا بد للناس منها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية، ولكن حركة ابنه يحيى لم تلبث أن قامت أيضاً.

وفي ١٢٥ تولى محمد بن علي العباسي، وأوصى من بعده لابنه ابراهيم، وأمره أن يقوم بأمور الدعوة. وبعد هذا العام تغيّرت الأحوال بالنسبة إلى الدعوة العباسية إذ:

١ ـ ضعف الحكم الأموي بعد وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥ هـ، وانقسم البيت الأموي على نفسه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً، الأمر الذي كره فيه الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه. هذا إضافة إلى الحركات التي قامت ضدهم.

٢ ـ زادت العصبية القبلية استحكاماً وخاصةً في خراسان، وكان الوالي نصر بن سيار مضرياً فتعصب لمضريته، وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه هذا بالإضافة إلى كراهية صاحب السلطة دائماً بسبب المصالح المتجددة. واتجه أنصار الدعوة العباسية إلى اليمانية، وهكذا حاموا التوجيهات

أيضاً من الإمام. وكره الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه، كره هذا اليمانيون عامةً، وكرهه المضريون أنصار الكرماني، وكرهه أهل الدين لمخالفته للإسلام، وكره ذلك الفرس كما كرهه الترك لأن ذلك يؤثر على بلادهم وعلى أحوالهم المعاشية دون أن يكون لهم أية علاقة، أو دون أن يكون أحد منهم طرفاً فيه.

٣ ـ أن هذه الصراعات قد أثرت على أوضاع المنطقة فتأخرت الزراعة، ونال هذا الأمر الموالي بالدرجة الأولى، إذ أنهم هم عمال الأرض، والمنتجون الرئيسيون في المنطقة بل وفي الدولة عامةً. وحرصت أعداد كبيرة منهم على الانتقال إلى المدينة لتجد حياةً أفضل فغصّت المدن بالناس الذين لا عمل لهم، وكانوا أرضاً طيبةً لانتشار الأفكار المعادية للأوضاع القائمة، وبالتالي أنصاراً للدعوة العباسية بل ولكلّ تغيير يمكن أن يتم.

٤ ـ أن الاشاعات الكثيرة التي روّجها خصوم بني أمية ضدهم قد لعبت دورها في كراهيتهم، ومساندة أعدائهم، والانضمام إلى صفوف الحركات التي تقوم ضدهم أو تعمل لذلك.

٥ ـ أن الحركات التي قامت في هذا الوقت كان لها الأثر السيء على الأمويين، فحركات الخوارج، وحركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرها مثل حركة الكرماني[1] وحركة الحارث بن سريج[2]، كلها لم تمض مدة طويلة على حركة زيد بن علي زين العابدين بن

---

(١) الكرماني: جديع بن علي الأزدي، وله بكرمان نسب إليها، ولي إمارة خراسان ثم عزل، وولي أمر المنطقة نصر بن سيار فسجنه فغضبت الأزد، وفر جديع من السجن، وثار على نصر بن سيار، ثم التحق بأبي مسلم الخراساني على قتال نصر بن سيار، ثم قتله نصر بن سيار عام ١٢٩ هـ.

(٢) الحارث بن سريح التميمي: كان من سكان خراسان، ثار على أميرها عام ١١٦، وسيطر على مناطق كثيرة، ثم هزم على أبواب مرو، فالتجأ إلى بلاد الترك، فبقي فيها ١٢ سنة ثم ==

الحسين، وحركة ابنه يحيى.

٦ ـ أن الترف الذي وجد في خراسان قد قسم المجتمع إلى طبقات، فحقدت الفقيرة على الغنية، وشعر الناس بمخالفة هذا للإسلام، وعدّوا الدولة هي المسؤولة عن وجود مثل هذه الطبقات.

٧ ـ أن انقسام الإقليم بين نصر بن سيار وجديع بن علي الكرماني، قد أضعف أمر الوالي، وفي الوقت نفسه فقد قوى أبو مسلم الذي ضمّ إليه أكثر أنصار الكرماني بعد قتله، وكانت الجهات التي اعتمدت عليهم الدعوة إلى بني العباس قد التفوا حولها بشكل أقوى.

إن القوة التي حصلت عليها الدعوة في خراسان قد جعل من الضروري وجود شخص قوي يتصل بالخمسة مباشرة دون الرجوع إلى داعي الدعاة الذي بقره الكوفة، وقد كان التفتيش عن هذا الشخص حتى وجد في شخصية أبي مسلم الخراساني[1]

---

(١) أبو مسلم الخراساني: يعتقد أن اسمه الحقيقي هو ابراهيم بن عثمان بن يسار من ولاء بني جشم، وكان يكنى أبا اسحاق، وقد أرسله الإمام ابراهيم بن محمد عندما أرسله إلى خراسان اسمه وكنيته.

كانت أمه من أهل وساق «قريتين» من قرية نسى «بنسخره» وكانت مملوكاً له يبيع فرجها، وكان يتاجر بالدواب الى الكوفة. فحسن وساق «قريتين» الجسر، وطرق، فأرسل اليه والي البلد من يخطبها فهرب بجاريته التي كانت حبلى، فولدت عام ١٠٠ هـ في بلدة رماه الفرزدق من أهالي أصبهان ولداً، هو أبو مسلم الخراساني. وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج فحمله معه إلى الكوفة. وهو ابن سبع سنين. وأهداه عيسى بن معقل بن لوذان السعدي العجلي وأخوه عاصم، وكانا من عيال خالد بن عبدالله القسري والي العراق وخراسان، وبقي عندهما حتى شب.

وفي ١٢٠ هـ عزل خالد بن عبدالله القسري عن العراق وخراسان، وتولى أمرهما يوسف ابن عمر الثقفي. فسجن خالداً وعياله، وسجنهم ابنا معقل العجلي، فكان معهما أبو مسلم الخراساني.

وفي عام ١٢٧ تولى بكير بن ماهان داعي الدعاة بالكوفة فعهد بأمر الدعوة من بعده لصهره أبي سلمة الخلال. وبعدها التقى الدعاة ومعهم أبو مسلم بابراهيم بن محمد في موسم الحج، ودفعوا له نفقات كثيرة، وزكاة أموالهم، ولاحظ ابراهيم ما صار إليه أمر أبي مسلم، وذكاءه، وإمكاناته، فقرر في نفسه أن يرسله إلى خراسان، فهو كفء لذلك، وأمر خراسان يحتاج أمثاله، والدعوة تنطلق بشكل جيد، ويمكن إظهارها بعد مدة إن استمرت في انطلاقها هذا.

وفي عام ١٢٨ بعث ابراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان، وكتب معه كتاباً إلى شيعته جاء فيه: «إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان». ولكنهم لم يلتفتوا إليه، فرجع أبو مسلم إلى الإمام ابراهيم أيام الموسم. فقال له: «يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت، إرجع عليهم، وعليك بهذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين

---

(٢) واجتمع أنصار العباسيين في دار، فحشر بهم، فأخذوا، وسجن بكير بن ماهان وأفرج عن الباقين. وقبض بكير بن ماهان داعي معقل العجلي، فدعاها إلى رأيه فأجابه، وقال بكير لعيسى: ما هذا الغلام؟ قال: غلامك. قال: نبيعه؟ قال: هو لك. قال: أحب أن تأخذ ثمنه وأعطاه أربعمائة درهم. ومن ثم خرجوا من السجن.

وفي عام ١٢٥ كان أبو مسلم مع دعاة بني العباس إذ التقوا محمد بن علي العباسي ثم بابنه ابراهيم، وأعطى أبو مسلم لابراهيم بن محمد، فبعث به إلى عيسى بن موسى السراج بالكوفة فسمع منه، وحفظ.

فأبو مسلم بلدي فارسي وليس من خراسان، ولعل هذه النسبة هي التي قربت العرس لخراسان.

كان قصيراً، أسمر، جعداً حدثاً، ذي البشرة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفاً بالأمور، لم ير ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، وكان لا يغضب في شيء من أحواله.

ثابت الجنان عظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، ويترك به العادة المتعبدة، فلا يرى مكثراً، وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب

أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانهم وديعة في أعناقهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، والقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع عراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار نهضه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه. وإذا أشكل عليك أمر فاكتب به إلي». وقد سبق أن شككنا في هذا الكلام إذ أن كبار الدعاة هم من القبائل العربية المعروفة - كما مرّ معنا - وهم قادة الدعوة والدولة في المستقبل.

سار أبو مسلم إلى خراسان بناءً على طلب الإمام الذي زوّجه ابنة عمران بن اسماعيل أبو النجم أحد النقباء الاثني عشر الأوائل. وبدأ العمل بنشاط وسرية تامة مع كتمان شديد.

وفي عام ١٢٩ طلب الإمام ابراهيم من أبي مسلم أن يحضر إليه مع كبار أعوانه، فسار إليه مع سبعين من النقباء. فلما كانوا ببعض الطريق جاءهم كتاب آخر من الإمام يقول فيه لأبي مسلم «إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة، وأمر قحطبة بن شبيب الطائي أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى ابراهيم الإمام فيوافيه في الموسم».

رجع أبو مسلم إلى خراسان فدخلها في أول يوم من رمضان، ووضع الكتاب إلى سليمان بن كثير الموجه إليه من الإمام وفيه «أن أظهر دعوتك ولا تناهض». فقدم الدعاة في خراسان أبا مسلم الخراساني عليهم كداعية لبني العباس، فبعث دعاته إلى بلاد خراسان كلها، وأمير خراسان نصر بن سيار مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري. أما هو - أبو مسلم - فقد نزل على سليمان بن كثير الخزاعي بقرية «سفيذنج» من قرى مرو فتحصّن بها، وأظهر نفسه، وجاءته أنصاره من كل مكان. ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس، ونصب له منبراً، ونودي للصلاة الصلاة جامعة، ولم يؤذن، ولم يقم خلافاً لبني أمية، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة.

أرسل نصر بن سيار جيشاً بقيادة مولاه زيد، فأرسل إليهم أبو مسلم قوة بإمرة مالك بن الهيثم الخزاعي أحد النقباء الاثني عشر الأوائل، ثم أمده بقوة أخرى، فانتصر مالك، وأسر عدداً من قوة نصر، وفيهم أميرهم زيد، فقتل أبو مسلم الأسرى إلا زيداً الذي بعثه إلى نصر ليعلمه عن جماعة أبي مسلم وما هم عليه، وكان هذا أول اشتباك وقع بين قوة بني أمية وقوة بني العباس.

وتمكن خازم بن خزيمة من السيطرة على مرو الروذ وقتل عاملها من قبل نصر بن سيار، وهو بشر بن جعفر السعدي، وكتب بذلك إلى أبي مسلم. كما أخذ مدينة «هراة» النصر من نعيم الذي أرسله أبو مسلم إليها، وهرب منها عاملها من قبل نصر بن سيار، وهو عيسى بن عقيل الليثي.

وحاول نصر بن سيار استمالة اليمانية إليه، ولكنه أخفق إذ رفض زعيمهم جديع بن علي الكرماني، حيث كان أبو مسلم يكتب إلى الطرفين، ويقول لكل منهما: إن الإمام قد أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك. ووقع كل منهما في حيرة ممن يعاون على الآخر. وتمكن نصر من اقناع الكرماني في السير إليه للاتفاق، وذهب إليه في مائة فارس، ووجدها نصر فرصة فقتله، وانضم عدد من أنصار الكرماني وولده إلى أبي مسلم وصاروا عوناً له على نصر.

وكثر أتباع أبي مسلم إذ كان يُرسل الدعاة إلى الكور يدعو لبني العباس، والناس في خلاف فبعث نصر إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى ابراهيم بن محمد، وكتب في جملة كتابه:

أرى بين الرماد وميض نار ... فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكى ... وإن الحرب مبدؤها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن كانوا لحينهم نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فقال نصر: إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده.

وكتب نصر بن سيار أيضاً إلى نائب العراق يستمده وهو يزيد بن عمر بن هبيرة، وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تحققت أن لا خير في الكذب
مازال أرض خراسان رأيت بها ... بيضاً إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ... ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يجتل لهن بها ... يلقين نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل واحد.

وبعث ابن هبيرة بكتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد، واتفق وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولاً من جهة ابراهيم الإمام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتال نصر بن سيار والكرماني. وعند ذلك بعث مروان، وهو بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك، يأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة، وهي البلدة التي يقيم فيها ابراهيم بن محمد، فيقيده ويرسله إليه. فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد ابراهيم جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعث نائب دمشق من فوره إلى مروان، فأمر به فسجن. ولكن الأمر جاء متأخراً إذ كان أبو مسلم قد ظهر وسيطر على مناطق واسعة.

وزادت مشكلات بني أمية إذ خرج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر في فارس وغلب عليها وعلى كورها، والسوق أيضاً على «حلوان»، و«قومس»، و«أصبهان»، و«الري»، ولكنه هزم فيها بعد بـ «اصطخر»، وأسر كثير من أنصاره، وسيهم مع السفاح عبدالله بن علي الذي تكلم بسوء عن

عبدالله بن معاوية حتى نجا. كما أن أبا حمزة الخارجي قد دخل مكة المكرمة بعد الموسم.

ودخل أبو مسلم الخراساني مدينة «مرو» حاضرة خراسان بمساعدة علي بن الكرماني، وفرّ نصر بن سيار منها متوجهاً إلى «سرخس»، وذلك عام ١٣٠. وكذلك أرسل أبو مسلم إلى شيبان بن سلمة الحروري قوة بإمرة بسّام بن ابراهيم موالي بني ليث فقتله، وتتبع أصحابه، كما أن أبا مسلم قد قتل ولدي الكرماني وهما: علي، وعثمان وصفا له الجو في المنطقة التي دانت له، ثم وجه خالد بن ابراهيم أبا داود وهو أحد النقباء الاثني عشر الأوائل إلى مدينة «بلخ»، فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري. ثم بعث قحطبة بن شبيب الطائي إلى «نيسابور» لقتال نصر بن سيار، فالتقى قحطبة في مدينة «طوس» بتميم بن نصر بن سيار، فانتصر قحطبة الذي أمده أبو مسلم بقوة بإمرة علي بن معقل فمكّنت من قتل تميم بن نصر، كما أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق دهماً لنصر بن سيار، ولكنهم هزموا، وقتل عامل «جرجان» نبانة بن حنظلة، وأرسل قحطبة بهذا النصر إلى أبي مسلم.

وزاد من أمور بني أمية أن أبا حمزة الخارجي قد دخل المدينة المنورة وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وبقي فيها ثلاثة أشهر إلا أنه قد هزم أمام قوة أرسلها إليه مروان بن محمد من خيرة رجال أهل الشام.

وفي عام ١٣١ هـ وجّه قحطبة بن شبيب الطائي ابنه الحسن إلى «قومس» لقتال نصر بن سيار، ففرّ نصر إلى الري، ومنها سار إلى همذان، وقبل أن يصل إليها توفي في «ساوة»[1]، وبوفاة نصر بن سيار دانت خراسان كلها لأبي مسلم، إذ دخل الحسن بن قحطبة الري، وهمذان، ونهاوند.

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخاً. رأيتها من قلعة القاقعية بقرب بين أهلها وأهل قرة الشيعية القريبة منها خلافات. وقد خربها التتار عام ٦١٧، وحرقوا مكتبتها العظيمة.

وفي عام ١٣٢ هـ التقى قحطبة بن شبيب مع أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة فانتصر جند قحطبة، وقتل معن بن زائدة قحطبة الذي استخلف ابنه الحسن بعده، والذي اتجه نحو الكوفة وقبل أن يدخلها خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعياً لبني العباس.

أما إبراهيم بن محمد فقد بقي في سجن مروان بن محمد حتى مات عام ١٣٢، وكان قد طلب يوم ألقي القبض عليه أن يكون الخليفة بعده أخوه عبد الله بن محمد (السفاح)، وأن يرتحل بأهله إلى الكوفة، فسار السفاح من يومها إلى الكوفة، ومعه أهل بيته: عبد الله، داود، عيسى، صالح، اسماعيل، عبد الصمد، وأخوه عبد الله بن محمد، وابنا أخيه ابراهيم وهما: محمد وعبد الوهاب، ولما وصلوا إلى الكوفة نزلوا على أبي سلمة الخلال فاسكنهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم، ثم بدأ ينقلهم بعد أربعين يوماً من مكان إلى آخر، ولما بلغهم مقتل أو موت ابراهيم بن محمد في صفر، أراد أبو سلمة أن يحول الخلافة إلى آل علي إلا أن بقية النقباء والأمراء قد عرفوا مكان السفاح فدخلوا عليه، وسلموا عليه بالخلافة، وكانت قد دانت أجزاء واسعة لأبي مسلم من العراق وخراسان، وذلك في ١٢ ربيع الآخرة من عام ١٣٢.

وخرج السفاح فدخل قصر الإمارة، ثم خرج إلى صلاة الجمعة فخطب الناس، وأخذ منهم البيعة بعدها، وعسكر السفاح في ظاهر الكوفة، واستخلف عليها عمه داود، ثم ارتحل إلى المدينة الهاشمية فنزل في قصر الإمارة.

أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين، فبعث أبا عون بن أبي يزيد إلى الزاب الكبير حيث يعسكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في قوة كبيرة، ثم أمده بعمه عبدالله بن علي، وبعث في إثره موسى بن كعب التميمي أحد النقباء الاثني عشر في خراسان الأوائل بأمره بالعمل على قتال مروان، والتقى الفريقان يوم ١٦ جمادى الآخرة، وهزم مروان ولحقه عبدالله بن علي إلى حران، فقنسرين، فحمص، فدمشق، وحاصر عبدالله دمشق ومن معه من

القادة ثم فتحت، وكان مروان قد هرب فلاحقه ثم جاءه امر أبي العباس إلى عمه عبدالله بن علي بأن يأمر أخاه صالح بن علي بمتابعة مروان، وأن يبقى هو ثانياً على الشام. ودخل مروان مصر، ثم وجد في كنيسة (أبو صير) فقتل. وعاد صالح بن علي إلى الشام، واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد، وتُعدّ دولة بني أمية قد دالت منذ وقعة الزاب الكبير.

وبعث السفاح ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط، ثم أمده بأخيه أبي جعفر حتى دخلوا واسطاً، وقتلوا يزيداً. كما أرسل دعماً إلى بسام بن ابراهيم بالأهواز فدخلوها واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٠٠	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب	—	الخراع بن عبدالله الحكمي	—
١٠١	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب	—	عبد الرحمن بن نعيم الغامدي	—
١٠٢	يزيد بن عبد الملك	محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد العزيز	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٣	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبدالله الحرشي	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٤	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	مسلم بن سعيد بن أسلم	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	ميسرة العبدي	أسد بن عبدالله القسري	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	ابو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٠٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	زياد أبو محمد
١٠٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري الحكم بن عوانة أشرس بن عبدالله السلمي	زياد أبو محمد
١١٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة أشرس بن عبدالله السلمي	زياد أبو محمد
١١١	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة أشرس بن عبدالله السلمي الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٢	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٣	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٤	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	عمارة بن حريم عاصم بن عبدالله	عمار بن يزيد (خداش)
١١٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	عمار بن يزيد (خداش)

السنة الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٢٧ هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١٢٨ هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١٢٩ هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبدالله القسري	سليمان بن كثير
١٣٠ هشام بن عبد الملك	خالد بن عبدالله القسري	بكير بن ماهان	جعفر بن حنظلة جديع بن علي الكرماني	سليمان بن كثير
١٣١ هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٣٢ هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٣٣ هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٣٤ هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٣٥ هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٣٦ الوليد بن يزيد	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
	منصور بن جمهور			
١٢٧ يزيد بن الوليد	عبدالله بن عمر بن عبد العزيز	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
ابراهيم بن الوليد	النضر بن سعيد الحرشي			

السنة الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٢٨ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٣٠ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	دخل أبو مسلم الخراساني مرو	أبو مسلم الخراساني
١٣١ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني
١٣٢ مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني

خلفاء عصر القوة وأبناؤهم
في عهد بني العباس

خلفاء بني العباس

١٠

السفّاح

عبد الله بن محمّد

١٣٢-١٣٦هـ

السفّاح

هو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ١٠٥ هـ، وأمه ريطة بنت عبيدالله بن عبدالله بن عبد المدان الحارثي.

تولى والده محمد بن علي عام ١٢٥ هـ بالحميمة[1]، وهو الذي بدأ بالدعوة العباسية، وكان السفاح قد ناهز العشرين من العمر، وعرف الكثير من الدعوة وأسرارها. وعهد والده من بعده لأبيه ابراهيم (أخو السفاح) الذي عرف فيما بعد بالإمام، وقد عمل على نجاح الدعوة، فقوي أمره، فأظهر نفسه في الموسم فعُرف، كما وقع كتاب وجهه إلى أبي مسلم الخراساني في يد مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية فأرسل إلى واليه على دمشق فبعث من أخذه إلى حرّان[2] قاعدة مروان فسجن هناك. وكان قد أوصى من بعده لأخيه السفاح، وأمره أن يسير بأهله إلى الكوفة، وذلك عام ١٢٩ هـ.

سار السفاح من الحميمة باتجاه الكوفة عن طريق دومة الجندل[3]، ومعه من

---

(١) الحميمة: بلدة تاريخية، في الأردن اليوم، على مقربة من مدينة معان.

(٢) حرّان: بلدة تقع في جنوب تركيا اليوم، على بعد ٤٣ كم من الحدود السورية، على نهر بليخ الذي يرفد الفرات عند الرقة.

(٣) دومة الجندل: بلدة تاريخية، شمالي الجزيرة العربية، على مقربة من الجوف اليوم، على الطريق بين الأردن والعراق.

أعقبه ثلاثة عشر رجلاً هم: أعمامه: صالح، واسماعيل، وعبدالله، وعبد الصمد، وعيسى.

أخواه: عبدالله بن محمد «المنصور»، ويحيى بن محمد.

أبناء أخوته: عبد الوهاب، ومحمد، ابنا ابراهيم «الإمام»، وعيسى بن موسى.

أبناء عمه: موسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر بن تمام بن عباس.

وصل هؤلاء الركب إلى الكوفة في شهر صفر من عام ١٣٢ هـ، وكان محمد بن خالد بن عبدالله القسري[1] قد خرج بالكوفة قبل أن يدخلها الحسن ابن قحطبة[2]، ودخل قصرها ففرّ منه عامل يزيد بن عمر بن هبيرة[3] عليها، وهو زياد بن صالح، وبعد ثلاثة أيام جاء الحسن بن قحطبة بجنده فدخل الكوفة، وانطلق إلى مكان أبي سلمة الخلال[4] فأخرجه من مخبئه، فالتقيه أبو

(١) محمد بن خالد بن عبدالله القسري: كان والده خالد بن عبدالله والياً على مكة للوليد وسليمان ابني عبدالملك، ثم ولي هشام بن عبدالملك إمرة العراقين من عام ١٠٦ إلى ١٢٦، ثم عزله يوسف بن عمر الثقفي، وعذب فكان ابنه هذا ثائراً على الأمويين، وعلى القسرية.

(٢) الحسن بن قحطبة: تولى قيادة جيوش العباسيين بعد مقتل أبيه على يد معن بن زائدة في النزاع الدائر بين جيوش الأمويين بمواجهة يزيد بن عمر بن هبيرة، وجند أبي مسلم الخراساني.

(٣) يزيد بن عمر بن هبيرة: أمير العراقين لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، كان بطلاً شجاعاً، سائساً جواداً، فصيحاً، خطيباً. وكان من الأكلة، هُزم فتحصّن في واسط، وحاصره المنصور مدة، ثم أمنه، ثم قتله بسجن من السفاح سنة ١٣٢.

(٤) أبو سلمة الخلال: حفص بن سليمان الهمداني، داعي دعاة بني العباس بالكوفة، وأنفق الكثير من ماله في سبيل ذلك، كان صيرفياً. اتهم بأنه يريد الدعوة لأبناء علي رضي الله عنه. كتب أبو مسلم الخراساني للسفاح يحسن له قتل الخلال، ولكنه رفض. أرسل له أبو مسلم من قتله ليلاً بالأنبار، بعد قيام السفاح بأربعة أشهر.

سلمة إلى النخيلة[1] فعسكر فيها يومين، ثم ارتحل إلى (حمام أعين)[2] على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة، وعسكر هناك، ووجّه الحسن بن قحطبة لقتال يزيد ابن عمر بن هبيرة في واسط، وجعل على الكوفة محمد بن خالد بن عبدالله القسري فكان يقال له الأمير. وفي هذه الأثناء وصل السفاح وركبه إلى الكوفة.

أنزل أبو سلمة القادمين في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم، وأخفاهم عن القادة على حين أن الكوفة قد أصبحت بأيديهم، وخراسان قد تسلّم أمرها أبو مسلم منذ أكثر من عام، وكان يجب أن يظهروا ويقودوا العمل بأنفسهم ما دامت الدعوة لهم، وهم أصحاب الشأن، كما أن الإمام ابراهيم قد مات في هذا الشهر فأصبح خليفته هو صاحب الأمر بالأصالة لا بالنيابة، وهذا ما جعل التهمة توجّه إلى أبي سلمة الخلال داعي الدعاة بأنه يريد حجب الأمر عن العباسيين وتسليمه إلى أبناء عمومتهم من أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وبقي أمر السفاح ومن معه مجهول الوصول والإقامة مدة أربعين يوماً، وكان أبو سلمة كلما سئل عن الإمام أجاب: لم يقدم بعد، وليس هذا وقت خروجه، حتى لقي أحد قادة العباسيين خادم السفاح، وهو يعرفه، فسأله عنهم فقال: إنهم بالكوفة، وإن أبا سلمة يأمرهم أن يختفوا، فأرسل القائد بعض أعوانه مع الخادم حتى عرف منزلهم بالكوفة. وسأل القائد أبا سلمة عن الإمام، فقال: ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد. فتدارس القائد مع البقية الأمر وقرروا أن يلقوا الإمام، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عن القادة في المعسكر، فقيل له: ركبوا إلى الكوفة في حاجة لهم.

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما بلغه هجوم أهل الشام على الأنبار.

(٢) حمام أعين: نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص.

ودخل القادة على القوم وسألوهم: أبكم عبدالله بن محمد ابن الحارثية؟ لأنهم لم يعرفوه من قبل، فأشار الحضور إلى السفاح فسلموا عليه بالخلافة. وجاء أبو سلمة بعدئذ الى السفاح وسلّم عليه بالخلافة.

كان السفاح شاباً، مليحاً، مهيباً ابيض، طويلاً، وقوراً أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية، ذا شعرة جعدة، جواداً حتى كان يضرب المثل بجوده، وقد أعطى عبدالله بن حسن بن الحسن ألفي ألف درهم. وكان عفيفاً عميقاً متعبداً.

تولى بالجدري عام ١٣٦ لثلاث عشرة خلت من شهر ذي الحجة، وبذا فقد عاش إحدى وثلاثين سنة، ولي الخلافة منها أربع سنوات، وبقي بين بيعته ووجود مروان بن محمد حياً ثلاثة أشهر، أي وجود خليفتين في آن واحد.

وتزوج امرأة واحدة هي أم سلمة المخزومية، وذلك قبل أن يلي الخلافة، وكانت قد تزوجت من عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فمات، وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات، فتزوجها أبو العباس. ولم يتزوج غيرها بعد أن آلت إليه الخلافة.

خلافته

خرج أبو العباس السفاح من مخبئه ومعه أهل بيته حتى دخلوا قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، وكان الناس قد علموا بذلك من قبل فلبسوا سلاحهم، واصطفوا لخروجه. ثم دخل السفاح المسجد من دار الإمارة فصعد المنبر، وقام في أعلاه، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم السفاح فذكر حقهم في الإمامة فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، وأيّده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به، والذابين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ماعنتنا، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[1]. وقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[2]، وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[3]، وقال: ﴿ما أفاء الله على

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣.
(٢) سورة الشورى الآية ٢٣.
(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[1]. وقال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[2]. فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا وصوتنا، وأنزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وتفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السنة[3] الضلال، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم! ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم وإخاء، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منّة ومنحة لمحمد ﷺ، فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا ميراث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خاصاً منها. ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأمهل الله لهم حيناً حتى أسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتاً، ووفى نصرنا والقيام بأمرنا، ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو ألا يأتيكم الخير من حيث أتاكم الخير، ولا الصلاح من حيث جاءكم الصلاح. وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل

---

(١) سورة الحشر الآية ٧.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤١.

(٣) السنة: نسبة إلى عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر. ودعا على علي بالألوهية، وادعى ولاء سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونسب له أموراً غريبة خارجة عن الإسلام.

الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

وكان موعوكاً فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن علي فقام دونه على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن اقشعت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت الأرض وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس نصابها، وعاد السهم إلى مرغه، رجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لتكثر جبناً أو هقياناً، ولا لنفجر نهراً، ولا لنبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أمورهم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أمورهم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان! أثروا في عدتهم وعتادهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وفشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استذلوا نسربل الأوزار، وتجلب الآصار، وسرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي، جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس

الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه، فناداني جرأة، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته، ما أحاط باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه من استتمام الكلام بعد أن استحفر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حرم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى، ومناهج التقوى.

يا أهل الكوفة، إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأقلح بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تشوقون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان، وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس وداود بن علي أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم، حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب، وجنّهم الليل فدخل[1].

ويبدو من خطبة أبي العباس ومن كلمة عمه داود بن علي ثلاث نقاط:

١ - محاولة إظهار أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم على اعتبار أن الخلافة وراثية، ولم تكن الخلافة في الإسلام ملكاً متوارثاً وإنما هكذا أصبح بعد الحكم الراشدي.

٢ - الهجوم على بني أمية، وعدهم ظالمين مستبدين، أخذوا بغير حق، وساروا فيه بكل عسف. وهذا شأن كل حاكم جديد بالنسبة لسابقه، يبرر قيامه، ويمكّن لنفسه.

٣ - الوعد بحكم ما أنزل الله، واتباع سنة رسول الله، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح، وهذه قناعة الخلفاء، الذين يظنون أن ما سبقهم لم يطبقوا الإسلام بشكل صحيح، والواقع أن الإسلام لم يتبع منهجاً سلفاً بعد صحابة رسول الله ﷺ، وإنما حدث فيه تغيير، ولكنه كان تغيير طفيف تزداد زاوية الانحراف وتتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى، ويبقى المظهر العام إسلامياً وذلك كل مدة الخلافة، فالخلفاء متمسكون عامة بتعاليم الإسلام، ويفخرون بذلك، لذا فهم يأخذون على غيرهم، ويظنون بأنفسهم أنهم بإمكانهم ان يطبقوا بشكل أفضل، ويعملوا بصورة أحسن. والواقع أن العباسيين في أيامهم الأول بصورة عامة كانوا أكثر تديناً من الأمويين، وأكثر تمسكاً بالإسلام، ولكنهم أقل خدمة للأمة، وقد ظهر هذا من كلمة داود بن علي من اليوم الأول، ولا تحقر شراً، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جلة مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيتهم، وإنما القضايا نسبية. فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب

(١) تاريخ الطبري.

الا تتبع. أما ما نسب هم، وما قيل فيهم فهو بتحميله محض افتراء من صنع المتحاسدين والخصوم.

وانشار داود بن علي إلى أن منبر الكوفة لم يخطب عليه خليفة بعد رسول الله ﷺ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان قد اتخذ الكوفة مقراً له، وبعده كانت الكوفة مهملة من قبل الخلفاء حتى قام الخليفة السفاح هذا. وفي هذا الكلام إثارة لأبناء الكوفة ليعضدوا الحكم الجديد الذي هو حكمهم إذ أن بلدتهم قد أصبحت قاعدة الخلافة الإسلامية كلها.

وفي اليوم الثاني سار السفاح إلى معسكر حمام أعين، وترك في حجرة أبي سلمة الخلال، ووضع بينها سترا. واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود ابن علي. وبعث عمه عبدالله بن علي في قوة دعماً لأبي عون عبد الملك بن يزيد لقتال مروان بن محمد.

وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى[1] دعماً للحسن بن قحطبة الذي يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط.

وأرسل عيسى بن جعفر بن تمام بن عباس دعماً لحميد بن قحطبة[2] الذي يدعم لبني العباس في منطقة الدالي ويقاتل قتيل الأمويين هناك.

وأرسل أبا البختري عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر على رأس قوة عوناً إلى بسام بن ابراهيم بن بسام بالأهواز.

---

(١) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، أبو موسى. فارس بني العباس، وصاحب المقتول، انتدب لحرب داعي عبدالله بن حسن فظفر بها. جعله السفاح ولياً للعهد بعد النصور لكن النصور أخره، وقدم عليه ولده، وبذلك له. وتوفي عام ١٦٨ بالكوفة.

(٢) حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي: قائد، من الولاة الشجعان، ولي إمرة مصر عام ١٤٣، ثم إمرة الجزيرة، ووجه لغزو أرمينيا عام ١٤٨، ولغزو كابل عام ١٥٢. ثم تسلم إمرة خراسان وتوفي فيها حين مات عام ١٥٩ هـ.

وانتصر عبدالله بن علي على مروان بن محمد في معركة الزاب[1] يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، وفرّ مروان إلى قاعدته، حرّان، فأقام بها ثمانياً وعشرين يوماً، ومنها سار إلى قنسرين[2]، وعبد الله بن علي متبع له، ومن قنسرين سار مروان إلى حمص، ومنها إلى دمشق فالأردن ففلسطين، ثم سار إلى مصر، واختبأ ببوصير حتى قتل فيها في ٢٧ ذي الحجة من عام ١٣٢ هـ. أما ابناء عبد الله وعبيد الله فقد فرا إلى الحبشة مع حاشية من الأتباع، ثم قتلت الحبشة عبيد الله، وأفلت عبد الله الذي سلم نفسه أيام خلافة محمد المهدي. وبمقتل مروان بن محمد خلت إمارة المؤمنين للسفاح إذ ليس للمؤمنين إلا أمير واحد فهم في دار الإسلام.

وأما واسط فبقيت محاصرة من قبل أبي جعفر المنصور والحسن بن قحطبة حتى جاء إلى ابن هبيرة خبر مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حمله إليه اسماعيل بن عبدالله القسري فطلب عندها ابن هبيرة الأمان وكثرت الرسل بينه وبين أبي العباس حتى تم الأمان فاستسلم ابن هبيرة ومن معه، وبقي يتردد على أبي جعفر مع حاشيته، ثم استشار أبو العباس في أمره، أنا مسلم فرأى قتله فقتل ابن هبيرة.

وأقام السفاح عدة أشهر بمعسكر حمام أعين، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة. ولم يستقر الوضع للسفاح بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، إذ اندلعت الثورات ضد السفاح في بلاد الشام، كما قامت حركات في بعض المناطق.

انتقل السفاح عام ١٣٤ من الكوفة إلى الأنبار حيث أصبحت مقر حكمه حتى توفي.

---

(١) الزاب: نهر يصب في دجلة على مقربة من الموصل، ويأتي من الشرق.

(٢) قنسرين: كورة بالشام منها حلب، وبينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص.

لم تقم حركات قوية ضد السفاح بعد عام ١٣٤ ، وفي الوقت نفسه لم تكن دولته موطدة الأركان ، واعتمد السفاح في خلافته على دعائم ثلاث وهي :

١ ـ أسرته لقد كانت أسرة السفاح كبيرة فكانت دعماً له ، ومن يريد أن يؤسس أسرة حاكمة فإن عدد أفراد أسرته يلعب دوراً كبيراً في تسهيل مهمته فنلاحظ أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أسس أسرة لكن لم يطل عهدها ، ولم يحكم بعده سوى ابنه يزيد ، على حين أن أسرة بني مروان قد استمر أمرها ما يقرب من سبعين سنة لكثرة أولاد عبد الملك بن مروان .

لقد كان للسفاح سبعة أعمام تسلموا له قيادة الجيوش ، وإمرة الولايات ، فضبطوا الأمر ، فكانت ولاية الشام لعبدالله بن علي ، وفلسطين لصالح بن علي ، والبصرة لسليمان بن علي ، وجزيرة العرب لداود بن علي ، والموصل ، والأهواز ، وفارس لإسماعيل بن علي ، وسار عيسى بن علي إلى فارس ، وقاد عبد الصمد بن علي الجيوش في الشام دعماً لأخيه عبدالله بن علي .

ولم يكن أبناء عمومته أقل دوراً من أعمامه فموسى بن داود ، وداود بن عيسى ، ويحيى بن جعفر كلهم كان لهم دور في توطيد دعائم الدولة .

واعتمد على أخويه عبدالله بن محمد ، ويحيى بن محمد في قيادة الجيوش وتولي الإمارة ، والاستشارة ، فكان المنصور عبدالله بن محمد على رأس القوة التي سارت لمحاربة الحسن بن قحطبة في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط ، ثم كان أمير الجزيرة حتى استخلف ، وكان يحيى بن محمد أمير الموصل ، ثم كان ابن أخيه عيسى بن موسى سيف بني العباس الصارم ، كما كان ولي العهد لأبي العباس بعد المنصور .

لقد كان السفاح يجب أن يكون دائماً أحد أهل بيته على الإمارة أو قيادة الجيوش ليضمن الأمر ، فعندما أرسل أخاه أبا جعفر دعماً للحسن بن قحطبة كتب إليه : « إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكن أحببت أن يكون

أخي حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته » .

وأرسل إلى فارس عمه عيسى بن علي رغم أن أبا مسلم الخراساني كان قد بعث بمحمد بن الأشعث إليها ولما رد محمد بن الأشعث عيسى بن علي أصر السفاح على أن يكون أحد أهل بيته على فارس فأرسل عمه الآخر اسماعيل بن علي .

وبعد أن فر مروان بن محمد من الزاب وغادر الموصل عين عبدالله بن علي عليها محمد بن صول غير أن السفاح لم يلبث أن بعث إلى الموصل أميراً من أهل بيته هو أخوه يحيى بن محمد ثم استبدله بأحد أهل بيته أيضاً ، وهو عمه اسماعيل ابن علي .

واستعان السفاح كذلك بأخواله فبعد أن تولى عمه داود بن علي أمير جزيرة العرب ولى على المدينة زياد بن عبدالله الحارثي ، وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبدالله الحارثي ، ثم علي بن الربيع الحارثي .

٢ ـ **أبو مسلم الخراساني** : الذي استطاع بحكمته ، وحزمه ، وقوته ، أن ينجح في الدعوة للعباسيين ، وأن يقود الجيوش ضد نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان وأن ينتصر عليه رغم حداثة سنه إذ قامت الدولة العباسية ولم يتجاوز الثانية والثلاثين ، وقتل ولم يناهز السابعة والثلاثين من عمره ، وبقيت خراسان على عهدها ما بقي فيها ابو مسلم ، بل كان سيف الدولة المصلت تضرب به من يخرج عن طاعتها .

٣ ـ **العصبية القبلية** : برغ قرن العصبية أيام الدولة الأموية وهذا ما أضعفها ، وهدد كيانها ، وكان سبباً في سقوطها وزوالها ، وأفاد العباسيون منها ، إذ رأوا التفرقة والخلاف بين القيسية واليمانية ، فلما كان آخر ولاة بني أمية من القيسيين لذا فقد ضم العباسيون اليمانيين إلى صفوفهم ، فلما قامت دولتهم بقوا

خالفين على هؤلاء الهاشميين لذا نجد أكثر قادتهم منهم.

وذكر أمام أبي العباس ما صنع أبو سلمة، فقال أحدهم: ما يدريكم، لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم، فقال أبو العباس: لئن كان هذا رأي أبي مسلم إنا لنعرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا. فأرسل أبو العباس أبا جعفر إلى أبي مسلم ليتعرف على الرأي، فلما وصل استقبله أبو مسلم استقبالاً حسناً، وبعد ثلاثة أيام سأله عن سبب قدومه، فأخبره، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، فذهب وقتله، وقالوا: قتله الخوارج.

الولايات

١ ـ **الكوفة**: كانت مركز داعي دعاة العباسيين، ثار فيها محمد بن خالد بن عبدالله القسري، وأعلن الدعوة للعباسيين فيها، ففرّ منها عامل ابن هبيرة عليها، وهو زياد بن صالح، ونزل فيها السفاح سراً مع أهله، وأنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم. وجاء الحسن بن قحطبة من شيب الطائي قائد العباسيين فدخلها، وخرج أبو سلمة من مخبئه، وعسكر خارجها، وتولى أمرها محمد بن خالد بن عبدالله القسري. وعندما قام السفاح ولّى عليها عمه داود بن علي، وعسكر هو خارجها، وعاد إليها بعد أشهر. وبعد عام تولى أمرها عيسى بن موسى لأن داود بن علي نقل إلى إمرة جزيرة العرب كلها [المدينة، ومكة، واليمن، واليمامة].

ثم انتقل السفاح من الكوفة إلى الأنبار عام ١٣٤ هـ، لكنها بقيت مركز قوة للعباسيين.

٢ ـ **البصرة**: بعد أن قام السفاح في الأمر، أرسل إلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبي عاملاً عليها من قبله، وبعد عام أرسل مكانه عمه سليمان بن علي، وبقي عليها مدة خلافة السفاح، ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٣ ـ **الموصل**: بعد هزيمة مروان بن محمد في الزاب وفراره متجهاً نحو حرّان خلف وراءه الموصل فولّى عليها عبدالله بن علي أميراً هو محمد بن صول ثم أرسل إليها السفاح أخاه يحيى بن محمد أميراً عليها، ثم استبدله بعمه اسماعيل بن علي.

٤ ـ الأهواز: دخلها بسام بن ابراهيم بن بسام، وأخرج من فيها من أتباع الأمويين، وتولى أمرها، ثم خرج منها وتوجه الى المدائن فأرسل السفاح إليها عمه اسماعيل بن علي. وأرسل إلى بسام في المدائن خازم بن خزيمة، فقر بسام عام ١٣٤ هـ.

٥ ـ فارس: بعث أبو مسلم الخراساني إلى فارس محمد بن الأشعث، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم، لكن السفاح أرسل إليها عمه عيسى ابن علي فردمحمد بن الأشعث وعندها سار إليها اسماعيل بن علي وتولى أمرها.

٦ ـ خراسان: كان أبو مسلم الخراساني سيد خراسان ولا منازع له، وهو صاحب الكلمة المسموعة فقط دون غيره، وبقيت هادئة. وخرج زياد بن صالح الذي كان عامل ابن هبيرة على الكوفة خرج مخالفاً وراء نهر بلخ فلما هزم فرّ إلى دهقان الترك فسلمه إلى أبي مسلم فضرب عنقه عام ١٣٥ هـ. ومن قبله خرج شريك بن شيخ المهدي فقتله أبو مسلم.

٧ ـ السند: أرسل السفاح إلى السند منصور بن جمهور فملكها، ثم ثار فيها فبعث له موسى بن كعب[1] عام ١٣٤ هـ فأخذها منه وفرّ منصور، واتجه إلى الصحراء فمات عطشاً، وبقي موسى بن كعب والياً على السند حتى توفي، وكان نائبه عليها ابنه عيسى.

٨ ـ الجزيرة: لما مرّ مروان بن محمد على حرّان فاراً من وجه عبدالله بن علي خلف عليها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، وهو ختن مروان عنده ابنته أم عثمان، فلما قدم عبدالله بن علي لقيه أبان مبايعاً له، ودخل في طاعته

(١) موسى بن كعب بن عيسى التميمي، من كبار قواد الدولة العباسية الذين رفعوا رايتها، جعله محمد بن علي أحد النقباء الاثني عشر، أخضع قم أيورد، وقضى على حركة منصور بن جمهور في السند، وملكها، وأصبح على شرطة الخليفة، وولي الهند ومصر، وتوفي عام ١٤١ هـ.

فأمنه ومن معه في حرّان والجزيرة، وترك عبدالله بن علي في حران موسى بن كعب، وسار إلى مروان.

ولما علم أهل الجزيرة بما كان من أمر قنسرين، وأبي الورد، أعلنوا خروجهم على العباسيين: وساروا إلى حرّان وعليها موسى بن كعب فحاصروه ومن معه. وجاء إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينيا، وكان قد تركها عندما علم بهزيمة مروان بن محمد، فسوّده أهل الجزيرة عليهم فحاصر موسى بن كعب مدة شهرين. فوجّه السفاح أخاه أبا جعفر ومن معه من الجند إلى حران، وكان بواسط يحاصر ابن هبيرة، وتحرك أبو جعفر نحو الجزيرة، وكان أهل فرقيسياء، والرقة قد وافقوا أهل الجزيرة في حركتهم. وتسلّم أمر الرقة بكار ابن مسلم العقيلي أخو اسحاق.

أرسل اسحاق أخاه بكاراً إلى دارا، وماردين وما حولها ولكنه هزم أمام أبي جعفر، وعندما وصل أبو جعفر إلى حرّان غادرها إسحاق بن مسلم واتجه إلى الرها، فخرج موسى بن كعب وقد فك الحصار عنه.

جعل إسحاق أخاه بكاراً على الرها، وخرج هو الى سُمَيْساط[1] فلحقه أبو جعفر وكانت بينهما وقائع.

كتب السفاح إلى عمه عبدالله بن علي يأمره بالسير على رأس قوة إلى سُمَيْساط، فسار، وحاصر إسحاق بن مسلم فيها عدة أشهر، وكان إسحاق يتعلل ببيعة مروان في عنقه فلما أخبر بمقتل مروان طلب إسحاق الأمان، فكتبوا إلى أبي العباس فوافقهم على الأمان له، فأعطيه، وأصبح من جند العباسيين، وعيّن أبو جعفر أميراً للجزيرة وارمينيا، وبقي فيهما حتى استخلف، وبنى على أرمينيا يزيد بن أسيد، وعلى أذربيجان محمد بن صول.

٩ ـ الشام: كان عبدالله بن علي يتتبع مروان بن محمد من حرّان، إلى منبج،

(١) سميساط: مدينة على نهر الفرات في بلاد تركيا اليوم.

قنسرين، فحمص، فبعلبك فكان كلما وصل عبدالله بن علي إلى مدينة استقبله أهلها، وبايعوه، ودخلوا في طاعته، فلما وصل إلى دمشق حاصرها وقاتله، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو خال مروان، عنده ابنته أم الوليد، ففتحت دمشق أبوابها في العاشر من رمضان ١٣٢، وقتل الوليد بن معاوية، وصار عبدالله بن علي إلى الكسوة فالأردن فبايعه أهلها، ثم اتجه إلى فلسطين فنزل بيسان، ثم مرج الروم، ثم نهر أبي فطرس[1]، وجاءه كتاب أبي العباس إلى عبدالله بن علي أن يوجه أخاه صالح بن علي ليلاحق مروان بن محمد ويلتفت هو إلى أمور الشام. وبقي بعدها صالح بن علي أميراً على فلسطين. أما عبد الله ابن علي فقد اتجه إلى محاربة حبيب بن مرة المري في أرض البلقاء، والبثنية[2]، وحوران، وهو أحد قادة مروان. وفي هذه الأثناء خرج أبو الورد عجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وقد كان من أصحاب مروان وقواده. فلما هزم مروان وجاء عبدالله بن علي لقيه أبو الورد وبايعه ودخل في طاعته.

كان أبو الورد جاراً لولد مسلمة بن عبد الملك. فجاء قائد من قواد عبدالله بن علي على رأس مائة وخمسين فارساً، وحل أولاد مسلمة بن عبد الملك ونساءهم قهراً من غير ذنب سوى أنهم أمويون، فشكا بعضهم إلى أبي الورد فأخذته الحمية والنخوة، وهجم على القائد وقتله ومن معه، ودعا أهل قنسرين إلى خلع طاعة عبدالله بن علي ففعلوا، وبايعته قيس، فخاف على نفسه، وأعلن الثورة، وهكذا كان تصرف قائد صغير مدعاة لثورة أربكت الدولة.

وعندما بلغ الخبر إلى عبدالله بن علي صالح خصمه حبيب بن مرة واتجه إلى

---

(١) أبو فطرس: نهر شمال مدينة الرملة بفلسطين على بعد ٢٠ كيلومتراً منها ينتهي في البحر جنوب يافا.

(٢) البثنية: قرية بين دمشق وأذرعات، وهي غير موجودة الآن، وكان النبي أيوب عليه السلام منها.

قنسرين ثائراً بدمشق، وما أن اجتاز دمشق حتى انتفضت عليه، لما صدر من أفعال من بعض أتباعه، ونهبوا متاعه فيها، ولم يتعرضوا إلى أهله، إذ لم يرضوا أن يفعلوا ما اشتكوا منه.

كاتب أهل قنسرين أهل حمص وتدمر فوافقوهم وجاءوا مدد إليهم، وعليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عرف بالسفياني.

وصل عبدالله بن علي إلى مقربة من معسكر السفياني فوجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف فالتقيهم أبو الورد وهزمهم في مرج الأخرم[1]، فعادوا إلى عبدالله بن علي أشتاتاً، فسار إليهم بنفسه ومعه أخوه عبد الصمد، وحبيب بن قحطبة وعدد من القادة البارزين، فانكشفت جماعة عبدالله بن علي، ولكنه ثبت هو وحبيب بن قحطبة، وأعادوا الكرة وثبت لهم أبو الورد في خمسمائة من أهله وقادته، فقتلوا جميعاً، وهرب أبو محمد السفياني ومن معه من الكلبية ولاذوا بتدمر، ثم فرّ وأتباؤه إلى الحجاز.

أمّن عبدالله بن علي أهل قنسرين فبايعوه من جديد، وأعلنوا ولاءهم له، وعاد إلى دمشق التي انتفضت عليه، وهزمت نائبه أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي، فلما اقترب منها هرب الناس منها وتفرقوا، ولم تحدث بينهم وبين عبدالله بن علي وقائع، فأمنهم، فجاءوا إليه وبايعوه، ولم ينتقم من أحدٍ منهم تهدئة لأحوالهم وألفة لقلوبهم.

وبقي عبدالله بن علي أميراً على الشام مدة خلافة السفاح.

١٠ ـ **مصر**: كان آخر ولاة بني أمية على مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وقد دخل إليها مروان بن محمد فاراً من وجه العباسيين فقتل

---

(١) الأخرم: مرج إلى الشرق من حمص ويعرف اليوم بمرج

فيها، وتولى أمرها أبو العون عبد الملك بن يزيد الأزدي وبقي فيها حتى عام ١٣٦ حيث ولي أمرها صالح بن علي.

١١ ـ **إفريقية**: سيطر الخوارج على إفريقية في أواخر عهد الدولة الأموية، وصار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقية، وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري يقاتل الخوارج.

١٢ ـ **الأندلس**: فقد كان عليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وصاحب الكلمة فيها الصميل بن حاتم، واستمرا حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل ثم خضعا.

١٣ ـ **الحجاز**: عيّن أبو العباس بعد مدة من قيامه عمه داود بن علي على مكة والمدينة واليمن واليمامة بعد أن عزله عن الكوفة، إلا أن هذه الولاية كانت إسمية، وخاصة على اليمامة إذ كان واليها الحقيقي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، غير أن داود بن علي لم يلبث أن توفي واستخلف مكانه ابنه موسى، ولكن السفاح أرسل خاله زياد بن عبدالله الحارثي على المدينة، فضبط أمرها، وأرسل جيشاً إلى اليمامة وأمرة ابراهيم بن حسان السلمي استطاع أن يخضعها ويقتل المثنى به يزيد.

وأرسل الى اليمن محمد بن يزيد بن عبدالله الحارثي، فلما تولى عام ١٣٤ كتب إلى عامل مكة علي بن الربيع بن عبدالله الحارثي أن يتوجه إلى اليمن فسار إليها.

وتولى أمر مكة العباس بن عبدالله بن معبد بن العباس.

١٤ ـ **أما البحرين وعمان** فكانت تتبع إمارة البصرة التي عليها اسماعيل بن

الفتوحات

كان أبو العباس مشغولاً بتوطيد أركان الدولة، كما كانت هناك قوة لأنصار الأمويين في الجزيرة، وفي الشام، وفي اليمامة، وقامت حركات فلا بد من قضاء شوكتها لذا فقد انصرف عن الفتوحات والغزو. وكل ما حدث أن توجه خالد بن ابراهيم[1] عام ١٣٣ على رأس قوة إلى بلاد الترك فيما بعد بلخ وحصل على غنائم، كما سار إلى بلاد ما وراء النهر، وتوغل في بلاد الترك ونال منهم، ورغم كان ذلك أن خراسان كانت أكثر استقراراً من غيرها.

وعندما استقرت أوضاع بلاد الشام وجه صالح بن علي الغزو الصائفة سعيد ابن عبدالله فحصل على بعض الغنائم. كما عقد أبو العباس لعمه عبدالله بن علي عندما زاره في الأنبار على صائفة تضم أهل خراسان والموصل والجزيرة والشام فسار حتى بلغ دلوك[2]، ولم يغادرها حتى جاءه نبأ وفاة أبي العباس.

وفي الوقت نفسه فقد استغل قسطنطين ملك الروم انشغاله الجزيرة على أبي العباس ودخل مدينة ملاطية، وقاليقلا، وانتصر على المسلمين.

---

(١) خالد بن ابراهيم الذهلي، أبو داود، ولي أمر خراسان أيام المنصور، وعزل عن الغزو، ثم ولي حدود، فأدرك طليطلة وصلح بها فسقط من الخليط فهلك سنة ١٤٠.

(٢) دلوك: بلدة من نواحي حلب بالقرب منها.

الخوارج

ظهر الخوارج الصفرية في جزيرة كاوان، كما ظهرت الأباضية في عمان بأمرة الجلندي فلما غضب أبو العباس على خازم بن خزيمة سيره على رأس سبعمائة فارس إلى الخوارج، فهرب الخوارج من وجه خازم من جزيرة كاوان وعلى رأسهم شبان بن عبد العزيز، ووصلوا إلى عمان فقاتلهم خوارج عمان لاختلافهم معهم، وقتل شبان ومن معه. وسار خازم إلى عمان، وانتصر على الجلندي وقتله وقتل معه عشرة آلاف من تبعه ورجع بعد أن مكث أشهراً.

كما دوخت الصفرية في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وظهرت الأباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعة لنفوذها، وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بجرد سيف من القيروان في محاربة الخوارج عندما قامت الدولة العباسية.

إلا أن البربر قد تضايقوا كثيراً من القتال الذي جرى في إفريقية نتيجة الصراع القبلي بين القيسية واليمانية، والحروب التي خاضها البربر ضد الرومان في صقلية وسردينيا ومع ذلك فإن القادة ليس منهم، ويخرون إلى الصراع جزءاً. لذا فقد ذهب وفد منهم إلى دمشق لمقابلة الخليفة، وتوضيح ما يعانون، ولكنهم عادوا دون إمكانية مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، وما أن رجع وفدهم إلى بلادهم حتى بايع الخوارج أحد أعضاء الوفد وهو ميسرة المطغري وذلك عام ١٢١ فثار وزحف بمجموعه إلى طنجة فدخلها، وقتل عاملها عمر

ابن عبيدالله المرادي، وعين عليها عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، ثم توجه إلى بلاد السوس فقتل اسماعيل بن عبيدالله بن الحبحاب وتمت لميسرة الطغري السيطرة على بلاد المغرب الأقصى إذ ساعدته في ذلك القبائل التي تؤيده، فقامت على من فيها من الأمراء وأزالتهم، وبايعت ميسرة.

أرسل عبيدالله بن الحبحاب جيشاً لقتال الصفرية بإمرة خالد بن أبي حبيب الفهري، كما استدعى جيش حبيب بن أبي عبيدة الفهري من صقلية، ووجهه أيضاً لقتال الخوارج. فانهزم ميسرة بالمعركة ورجع إلى طنجة، وهذا ما قلل من هيبته، وقدمت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتي.

سار خالد بن حميد الزناتي لملاقاة جيش خالد بن أبي حبيب الفهري، وعندما اقترب منه حضره بين قسمي جيشه فأباده في معركة الأشراف.

وأصبحت النقمة على عبيدالله بن الحبحاب كبيرة فاستدعاه الخليفة، وأرسل جيشاً بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ومعه بلج بن بشر خليفةً له، ومن بعدهما لعلبة بن سلامة العاملي. والتقى هذا الجيش ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري بالخوارج في معركة عام ١٢٣ قتل فيها كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وتمكن بلج بن بشر من الفرار مع عشرة آلاف من جنده إلى طنجة، وعادت فلول الجيش الأموي إلى القيروان. وأصبح المغرب الأقصى والأوسط تحت نفوذ الخوارج من الصفرية. وغدا خالد بن حميد الزناتي سيد المغرب الأقصى، أما المغرب الأوسط ففيه عكاشة بن أيوب النعراوي، وعبد الواحد بن يزيد الهواري. وحين خرج كلثوم بن عياض القشيري إلى المغرب وترك المغرب الأدنى وراءه سار إلى قابس عبد الواحد بن يزيد الهواري فدخلها.

أما القيروان فكان عليها عامل كلثوم بن عياض وهو مسلمة بن سوادة وقد سار لقتال عكاشة بن أيوب ولكنه هزم أمامه، واضطر إلى العودة مسرعاً لقاعدته في القيروان وهذا ما جعل جنده يثورون عليه، ويولون أمرهم سعيد

ابن بجرة الغساني الذي اعتصم بالقيروان.

سار سمير بن بجرة عام ١٢٤ إلى قابس، وما أن خرج من القيروان حتى سار إليها عكاشة بن أيوب لكنه لم يتمكن من دخولها إذ صدّه عنها القيروانيون بإمرة عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وفرّ عكاشة بن أيوب إلى الصحراء، وحاول عكاشة، وعبد الواحد تنظيم الخوارج من الصفرية بالاستعانة بقبيلة زناتة التي كان مقدم الخوارج فيها أبو قرة.

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك والي مصر حنظلة بن صفوان على رأس جيش كبير، وأعطاه ولاية إفريقية، وما أن وصل إلى القيروان حتى بعث بجيش لمنازلة الخوارج في تراب، وكان هذا الجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فانتصر على الخوارج، ولكنه قتل في معركة ثانية. وفي الوقت نفسه قتل عامل طرابلس معاوية بن صفوان على يد الصفرية أيضاً. ولم يبق من عقبة أمام الصفرية سوى القيروان فسار إليها عكاشة بن أيوب، وعسكر بالقرب منها في منطقة القرن، كما سار عبد الواحد من تلمسان على رأس جيش، ومعه أبو قرة، وعسكر في الأصنام، والتقى على جيش أرسله له حنظلة بن صفوان.

تحصّن حنظلة بالقيروان، وحفر خندقاً وعندما تيقّن من قوته تقدّم إلى عكاشة وهزمه في القرن عام ١٢٥، وأسره وقتله، كما هزم جيش عبد الواحد في الأصنام بعد انتصار جزئي أحرزه.

سيطر عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على المنطقة، وأحرز حنظلة بن صفوان على مغادرتها، واضطر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على الاعتراف بولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية، وتمكّن من القضاء على حركات الخوارج من الصفرية إذ قضى على حركة عروة بن الوليد الصدفي في تونس، كما قمع كل حركة للخوارج.

وولت دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس، والخوارج من الصفرية في مرحلة من الضعف، وعبد الرحمن بن حبيب هو صاحب الكلمة في إفريقية.

هذا بالنسبة إلى الصفرية أما بالنسبة إلى الأباضية من الخوارج فقد كان نشاطهم في المغرب الأدنى. وقام زعيمهم عبد الله بن سعود النحيي بثورة في منطقة طرابلس عام ١٤٦ غير أن عبد الرحمن بن حبيب قد تمكن من القبض عليه وقتله كما قتك بقبيلة هوارة التي تزعمها الخارجي.

وقام عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي بحركة عام ١٣٠، وحاصر طرابلس، ودخلاها، وقتلا عاملها، وهزما جيوش عبد الرحمن بن حبيب ثلاث مرات، وعندما قررا السير نحو القيروان اختلفا، وانشغل أحدهما بقتال الآخر، وهذا ما أضعف الأباضية، وقتّ في عضدها تماماً عام ١٣١ هـ. ولكن لم يمنع هذا من قيام اسماعيل بن زياد النفوسي بثورة عام ١٣٢ فاستولى على قابس، فأسرع إليه عبد الرحمن بن حبيب، وهزم الأباضية.

وهكذا فإن شأن الأباضية لم يكن بأفضل حالاً عندما قامت الدولة العباسية. ولكن مات عبد الرحمن بن حبيب، وحدث صراع بين أمرائه، وشغلت الدولة العباسية بأحداثها فنشط الخوارج تارة أخرى في أيام المنصور، وإن حدثت بعض الحوادث أيام السفاح، إذ خلف عبد الرحمن بن حبيب ابنه حبيب فنازعه عمه عبد الوارث الذي كان على صلة بالخارجي عاصم بن جميل ولكنه أظهر الولاء للعباسيين أو هكذا ظنّ الناس، ولكن حبيب تمكّن من هزيمة الخوارج هزيمة منكرة عام ١٣٥.

المنصور

عبد الله بن محمد

١٣٧ - ١٥٨هـ

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ٩٥ هـ، فهو أكبر من أخيه أبي العباس بحوالي عشر سنوات، وأمه سلامة البربرية.

توفي والده محمد بن علي وقد جاوز المنصور الثلاثين، فقد التقى مع والده بكبار الرجال، كما عرف جده علي بن عبد الله الذي توفي عام ١١٨.

كان أسمر طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، معرّق الوجه، رحب الجبهة، أقنى الأنف. وكان فحل بني العباس هيبةً وشجاعةً، ورأياً وحزماً، ودهاءً وجبروتاً، وكان جماعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللعب، وحسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم، متديناً كثير الخير.

تولّى إمرة بليدة في فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، ثم عزله وضربه.

خرج على بني أمية مع أخيه السفاح، وعمّيه عبدالله بن علي، وعيسى بن علي عندما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فلما هزموا، توزعوا واختفوا، وسار المنصور مختفياً في الجزيرة، وتزوج بأم ولد، ثم رجع إلى الحميمة حتى انضم إلى ركب أخيه إلى الكوفة.

انتقل مع أخيه أبي العباس من الحميمة إلى الكوفة، ونزل معه في محبته،

وخرج منه معه، وكان مستشاره ومن دهاته.

وتنكّر أبو العباس لأبي سلمة قبل ارتحاله من عسكره بالنخيلة، ثم نزل عنه إلى المدينة الهاشمية، فنزل قصر الإمارة بها، وهو متنكّر له، وقد غرّر ذلك منه، وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه، وما كان همّ به من الفتك. وما يتخوّف منه، فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين: إن كان اطلع على ذلك منه فليقتله، فقال داود بن علي لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فتجتمع عليك بها أبو مسلم وأهل خراسان الذين معك، وحاله فيهم حاله، ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وأرسل له أخاه أبا جعفر الذي يقول: فخرجت على وجلٍ، فلما انتهيت إلى الريّ، إذا صاحب الريّ قد أتاه كتاب أبي مسلم: إنه بلغني أن عبد الله بن محمد توجّه إليك، فإذا قدم فاشخصه ساعة قدومه عليك. فلما قدمت أتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبي مسلم، وأمرني بالرحيل، فازددت وجلاً، وخرجت من الريّ وأنا حذر خائف فسرت، فلما كنت بنيسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبي مسلم إذا قدم عليك عبدالله بن محمد فأشخصه ولا تدعه يقيم، فبان أرضك أرض خوارج ولا آمن عليه. فطابت نفسي وقلت: أراه يعنى بأمري. فسرت فلما كنت من مرو على فرسخين، تلقاني أبو مسلم في الناس، فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ، حتى قبّل يدي، فقلت: اركب، فركب فدخل مرو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه؟ فدعا مزاحم بن أنس النصبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، وانته في ذلك إلى رأي الإمام.

وصل مزاحم إلى الكوفة، وقدم على أبي العباس في المدينة الهاشمية، وأعلمه سبب قدومه، فأمر أبو العباس منادياً فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة ودعاه وكساه. وجاء أبو سلمة بعد ذلك ليلةً إلى أبي العباس، وسهر

عنده حتى ذهب عامة الليل، ثم خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده، فعرض له مزاحم بن أنس النصبي ومن كان معه من أعوانه فقتلوه، وأغلقت أبواب المدينة، وقالوا: قتل الخوارج أبا سلمة.

يبدو أن أبا مسلم كان حذراً جداً فخشي أن يلتقي أبو جعفر بالناس أثناء قدومه إليه فيفسد عليه ولايته، لذا رغب ألا يمكث في بلدٍ أبداً، ولاحظ في كتابه الأول إلى صاحب الريّ بعض عدم الحذر فأراد أن يعقبه بالكتاب الآخر الذي بعثه إلى صاحب نيسابور، وعندما وصل أبو جعفر إلى مرو اصطنع أبو مسلم المحبة والاحترام الزائد والتقدير لأبي جعفر، كما رغب أن يبقى سرّه بينه وبين نفسه، لذا لا مانع عنده من أن يتخلص من كل الدعاة السابقين، ومن ثم شأن سابق ليبقى وحيداً في أمره، وانتهى من أبي سلمة كبير الدعاة فحقق ما يريده العباسيون، وحقق ما تطمح إليه نفسه. أما أبو جعفر فيبدو حذره واضحاً منذ تكلّف بالرحلة إلى مرو حيث كان وجلاً خائفاً منها.

ويزداد الأمر وضوحاً في الرحلة الثانية التي سار بها أبو جعفر إلى خراسان، فبعد أن قتل أبو سلمة أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مسلم، فلما وصل أبو جعفر إلى مرو مشى معه عبيد الله بن الحسين الأعرج، وسليمان بن كثير، فقال سليمان بن كثير للأعرج: يا هذا، إنا كنا نرجو أن يتم أمرنا فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ الأعرج أنه تنبّس من أبي مسلم، فخاف ذلك، وبلغ أبا مسلم مسايرة سليمان بن كثير إياه، وأتى عبيد الله أبا مسلم، فذكر له ما قال سليمان، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اغتاله - إذ كانوا يخشون أبا مسلم خشيةً كبيرةً - فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير، فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من انتهبته فاقتله؟ قال: نعم، فقال: إني قد انتهبتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت متطوّع على غشّ الإمام، فأمر بضرب عنقه. ووصل الخبر إلى أبي جعفر فغضب غضباً شديداً، ولكنه كظم غيظه، فسليمان بن كثير الخزاعي أحد نقباء الدعوة، وشيخهم، وكان كلما جاء

داعية إلى خراسان يطلب منه أن يسمع ويطيع لسليمان هذا، ومنهم أبو مسلم نفسه. ورجع أبو جعفر إلى الكوفة، فقال لأبي العباس: ليست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله. قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد. قال أبو العباس: اسكت فاكتمها. وأصبح أبو جعفر لا يطيق أبا مسلم ويرى أنه الشيخ الذي بهذه العباسين ولا يمكن مخالفة أمره في خراسان للفرع الذي نشره بين الناس، والأسلوب الذي اتبعه في نقل الأخبار إليه، والنقل المباشر لأدق ذلك. ثم تقريب عناصر الإجرام إليه، واستخدامهم أداة لتنفيذ ما يريد. وكان أبو مسلم كلما قتل أحداً اتهمه بعثه للإمام وذلك من أجل أن يرضي العباسيين ويظهر تأييده البارد لهم، وأنه يعمل لهم، وفي الواقع أنه كان يخطط لمصلحة يراها، ويحكم أمرها.

وعندما عاد أبو جعفر إلى الكوفة أرسله أبو العباس إلى واسط لمحاصرة ابن هبيرة فيها وبعد حصار استمر ما يقرب من أحد عشر شهراً، وصل خبر مقتل مروان بن محمد إلى ابن هبيرة فطلب وقتها الأمان والصلح، وجرت الرسل بين الطرفين، وتم الأمر، وخرج ابن هبيرة، وكان يسمر عند أبي جعفر، ويرى أبو جعفر المحافظة على العهد والوفاء بالأمان لابن هبيرة، إلا أن أبا العباس قد استشار أبا مسلم فقال له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، وأنه لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة، ولكن أبا جعفر راجعه، وراجعه، وأبو العباس يلح حتى قال له أخيراً: والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك، ثم يتولى قتله. فأزمع قتله، ونفذ ذلك.

كان أبو جعفر يرى أن استرضاء القادة الذين كانوا دعامة بني أمية قوة للعباسيين، أما أبو مسلم فيرى في وجود قادة يزيدين في صفوف العباسيين إضعافاً لمركزه. لذا كان يرى التخلص منهم كي لا يفسدوا عليه الطريق

السهلة التي يراها، وعبّر عنها بجوابه لأبي العباس. وهكذا زادت نقمة أبي جعفر على أبي مسلم.

وما انتهى أمر واسط وابن هبيرة حتى أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر أميراً على الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، وبقي أميرها حتى استخلف.

ولما بايع أبو العباس لأخيه أبي جعفر من بعده بعث إلى أبي مسلم وكان بنيسابور كي يأخذ البيعة منه ومن أهل خراسان، وكأن أبا العباس كان يحب أن تزول النقمة بين أخيه وأبي مسلم بالصلة والزيارة ولكن ذلك ما كان إلا ليزيدها، وما من تصرف إلا ويؤول، إذ أن النفوس غير صافية بعضها لبعض. ووصل أبو جعفر إلى نيسابور فاستقبله أبو مسلم، واستخفّ به، إذ وجد في استخلافه عقبة كأداء في وجه مشروعاته، وما يُخطط له. وبقي عدة أيام أبو جعفر في نيسابور حتى فرغ من البيعة، ولما عاد أخبر أبا العباس بما كان من استخفاف أبي مسلم به.

وفي عام ١٣٦ استخلف أبو جعفر على عمله في الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان مقاتل بن حكيم العكي، وقدم على أبي العباس واستأذنه بالحج، فأذن له، واستعمله على الحج. ولم يلبث أن كتب أبو مسلم لأبي العباس يستأذنه في القدوم عليه، فأجابه إلى ذلك، فقدم في جماعة عظيمة من أهل خراسان، فأمر أبو العباس الناس باستقباله فاستقبلوه، وأكرمه أبو العباس، وأنزله قريباً منه، ثم استأذنه بالحج فقال له: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم.

واستغلّ أبو جعفر وجود أبي مسلم بالأنبار فقال لأبي العباس: يا أمير المؤمنين اطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدره، فقال: يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه، فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت ستوراً لقام مقامه. وبلغ ما بلغ في هذه الدولة... فوافق أبو العباس ثم تراجع عن ذلك.

وسار أبو جعفر إلى الحج كما سار أبو مسلم، وانتهى الموسم. وكان أبو مسلم يعطي الأعطيات، ويمنح العطيات، ويحفر الآبار، ويتقرب إلى الناس. ولم يكن أبو جعفر كذلك فزاد غضب المنصور من تصرف أبي مسلم، وحببه للناس.

وتوفي أبو العباس فأخذ البيعة للمنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إلى عمه بذلك، وقام بأمر الناس. ووصل الخبر إلى المنصور وهو في الطريق، فبايعه أبو مسلم ومن معه، وتابع سيره حتى أتى الكوفة، فصلى الجمعة فيها، وخطب أهلها، وأعلمهم أنه راحل إلى الأنبار.

وقيل: إن خبر موت أبي العباس قد وصل إلى أبي مسلم قبل وصوله إلى أبي جعفر فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. عافاك الله وأمتع بك. إنه أتاني خبر أفظعني وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط، لقيني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين - رحمه الله - فسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرك مني. وبعد يوم أو يومين بعث بالبيعة إليه. ويبدو أنه أراد المداهنة قبل أن ينتقم منه المنصور.

خلافته

وصل أبو جعفر إلى الأنبار فوجد العراق أمر منتهياً من حيث البيعة، وقد أخذها له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأرسل الرسل لأخذها، وتسلّم له الأمر، فلما وصل إلى مقره سلّمه المقاليد. وبدأت المشكلات للمنصور تتوالى فأخذها بالحكمة والحزم.

كان عيسى بن موسى قد أرسل إلى عبد الله بن علي يخبر وفاة أبي العباس، وطلب منه البيعة لأبي جعفر، وكان عبد الله بن علي في طريقه إلى الروم، فلما جاءه الخبر، نادى الصلاة جامعة فاجتمع إليه القادة والجند فقرأ عليهم كتاب أبي العباس، وقال لهم: إن أبا العباس لما أراد أن يرسل إلى حرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قال: من يسير إليه وهو ولي عهدي. فتقدمت ولم يرسل غيري، فكنت ولي عهده، وأنا من بعده، والآن قد رحل فأنا الخليفة من بعده، وشهد بعض القادة على ذلك. فبايعه من معه وسار بهم إلى حران، ودعا مقاتل بن حكيم العكي إلى البيعة فلم يجبه فحاصره مدة دخل بعدها حران وقتله، ثم تحصّن بها، وأخذ استعداداته.

يرى عبد الله بن علي أنه الخليفة الطبيعي فهو الذي قد دكّ صرح الدولة الأموية، ونبّت دعائم البيت العباسي، وإذا كان أبو العباس قد تولى الخلافة بالعهد من أخيه ابراهيم إلا أنه هو الآن أحق الناس بالأمر، وإذا كان إخوته

جيشهم أكبر منه باستثناء عبد الصمد[1] إلا أنهم دونه في المؤهلات كما لم يقوموا بالدور الذي قام به. كما أن أخاه عبد الصمد هو بجانبه ويرى رأيه. وإذا كان ابن أخيه أبو جعفر أكبر منه سناً إلا أنه لم يقم بأي دور يؤهله باستلام الأمر - حسب رأيه -.

أما أبو جعفر فرأى أن يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه. وأبو مسلم يرهبه الجند، ويخافونه فقد ذاع صيته، وعرفت مقدرته، ثم يطيعه الخراسانيون، ويستمع له القادة وإن من لم يسمع له، ينتهي بطريقة أو بأخرى.

استخلف أبو مسلم خالد بن ابراهيم على خراسان، وسار إلى الأنبار حيث تلقى التعليمات من الخليفة ومنها التطلق نحو حران، ومعه من القادة، الحسن بن قحطبة، وجهد بن قحطبة وكان قد فارق عبد الله بن علي وفرّ منه بعد أن أراد عبد الله قتله، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وخازم بن خزيمة. وكان الحسن ابن قحطبة خليفة أبي جعفر على أرمينيا فكتب إليه أن يلحق أبا مسلم فوافاه في الموصل.

كان عبد الله بن علي يعتمد على قوته وجرأته، وشجاعة أخيه عبد الصمد، وقوة أهل الشام. ويعتمد أبو مسلم على طاعة جنده وتفانيهم، ودهائه، وخططه

---

(١) أبناء علي بن عبد الله بن علي:
١ - محمد بن علي: ٩٢ - ١٢٥ هـ.
٢ - داود بن علي: ٩٢ - ١٣٢ هـ.
٣ - عيسى بن علي: ٩٣ - ١٦٤ هـ.
٤ - سليمان بن علي: ٩٥ - ١٤١ هـ.
٥ - اسماعيل بن علي: ٩٥ - ١٦٦ هـ.
٦ - صالح بن علي: ٩٦ - ١٥١ هـ.
٧ - عبد الصمد بن علي: ١٠٢ - ١٨٥ هـ.
٨ - عبد الله بن علي: ١٠٣ - ١٤٧ هـ.

التي يستعملها في القتال. ولكنه كان يخشى الخليفة فهو ابن أخي عبد الله بن علي، فإن تمكّن من عبد الله بن علي أخذ الخليفة ثأره منه، وإن فرّ قتل فالموت في كلا الحالين. ويبدو أن عبد الله بن علي أخذه الخوف فطاشت حكمته إذ خاف ممن معه من أهل خراسان في الجيش فقتل عدداً منهم الأمر الذي أفقده ثقة جنده، ووصل الخبر إلى أبي مسلم فاتخذ حكمته، إذ دبّ الهاس في جنده من أهل خراسان، واقتنعوا بأنهم إن استسلموا كان القتل مصيرهم، وفي الوقت نفسه أعلن لعبد الله بن علي وأخبر جنده أنه لم يأت لقتال عبد الله ابن علي وإنما جاء والياً على الشام، وهذا ما جعل جنود الشام يخافون منه على أهليهم ما داموا جنداً مع عبد الله بن علي لذا رأوا السير إلى الشام، وأجبروا عبد الله بن علي على ذلك، فلما سار حلّ أبو مسلم مكانه، وكان قريباً منه، فلما عاد وجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره، فنزل موضعه، واشتبك الطرفان في معارك زادت على خمسة أشهر، وكان التفوق لأهل الشام إلا أن تدبير المعركة قد جعلت الهزيمة تحلّ بعبد الله بن علي في جمادى الآخرة وفرّ إلى العراق، ومضى إلى البصرة فأمنه أخوه سليمان بن علي، أما عبدالصمد بن علي فقد نزل الكوفة وأمنه ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد. وبعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يحصي ما أصابه أبو مسلم من معسكر عبد الله بن علي فغضب أبو مسلم كثيراً فأمنّ الناس ولم يقتل أحداً. ولما وصل إليه أبو الخصيب أراد أن يقتله فتكلم فيه إذ قيل إنه رسول فخلّى سبيله وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال، وشتم المنصور، فرجع أبو الخصيب إلى المنصور فأخبره.

أصبح الخلاف واضحاً بين المنصور وأبي مسلم، وبعد الانتهاء من حركة عبد الله بن علي أصبح أبو مسلم الرجل القوي الوحيد في الدولة، ولكن لا يريد أن تطاله يد المنصور، كما أن المنصور قد أصبح يخافه ولا يريد أن يعود إلى خراسان فإن سار إليها واعتصم فإنه يزعج الدولة، ويحتمه أن يقوم بعمل تتجرأ به الدولة، أو يعصف بها أو بخليفتها، ويريد لذلك أن يتخذ الروية

والحكمة في تصرفه معه البصيد، قبل أن يفلت منه لما كتب إليه «إني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب»[1]. فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يوليني الشام ومصر، وخراسان لي. فكتب الرسول إلى المنصور بذلك، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف، وخرج عن وجهه يريد خراسان، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه - كأن المنصور قد تنازل وصار شوطاً نحو أبي مسلم ليسير هو الآخر شوطاً، وقد يكون هذا السير تهديداً بأنه إن لم يأت إليه فإنه عازم على الخيلولة دون توجهه إلى خراسان -. فكتب إليه أبو مسلم - وهو بالتراب -: «إنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله - عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون عن قربك، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك أرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي». وكذلك كتاب أبي مسلم فيه إظهار الطاعة وفي الوقت نفسه فيه التهديد على تنفيذ ما يريد وهو السير إلى خراسان إن صمم المنصور فرض رأيه، بل مستعد لنقض البيعة. ولما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم «قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتك في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمعاً ولا طاعة، وحل إلبسك أمير

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير - الجزء الرابع.

المؤمنين فيمن عن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك؟».

ثم زادت قسوة الرسائل والكتب، وأصبحت تظهر ما تخفيه النفوس، فكتب أبو مسلم لأبي جعفر «أما بعد فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دل بغرور، وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يجعلكم، ثم استقالني الله بالتوبة فإن يعف عني فقديماً عرف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما ربك بظلام للعبيد».

وكتب أبو جعفر لأبي مسلم: «أما بعد فإنه يربن على القلوب ويطبع عليها المعاصي، فع أيها الطائش، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها النائم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، في برزخ دنيا كانت قد غرّت من كان قبلك، وسم بها سوالف القرون (هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً)، وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، فلا تغترن بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلاً مهلاً، احذر البغي أيها مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلّى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه للدين والقسم، واحذر أن تكون سنّة في الدين قد خلوا من قبلك، ومثلة لمن يأتي بعدك، فقد قامت الحجة، وأعذرت إليك، وإن أهل طاعتي فيك. قال تعالى ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾».

فأجابه أبو مسلم: «أما بعد فقد قرأت كتابك فوجدت فيه الغموض لعمري، وفي الخلق حائداً، إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها، وكتبت إلي فيه آيات منزلة للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإني والله ما استخفت من آيات الله، ولكني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً مسلوباً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتيت بأحوج لك من فلتك ثم لك من بعدها، فكنت فيها شبعاً مطيعاً أحسني هادئاً مهدياً، وأخطأت في التأويل، وقديماً أخطأ المأولون، وقد قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾، وإن أحداث السلاح ظهر في صورة مهدي، وكان ضالاً فأمرني أن أجره السيف وأقتل بالظنة، وأقدم بالشبهة، وأرفع الرجاء، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا بطاعتكم، وتوطأ سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم. ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم، واستنقذني بالتوبة، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً، وإن يجازني فبذنوبي، وما ربك بظلام للعبيد».

وكتب أبو جعفر إلى أبي مسلم: «أما بعد، أيها المحروم العاصي فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه، فأوضح لك السبل، وجلك على النهج السديد، فلم يأخذ القديمة لما كنت في الخلق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً، ولكنه لم يسبح لك أعنان إلا كنت لأرشدها تاركاً، ولأعوامها راكباً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبارة، وتحكم بالجور حكم المستهين، وتسير المال، وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين، ثم من علي أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته أن يقدم بسيرك، فإن أرضت خراسان لثقتك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجه لقتالك أقرانك، فأجمع كيدك، وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين ومن معه ونعم الوكيل».

ومع هذه القسوة في الترسلات إلا أن أبا جعفر قد أقام عاملها الخبير السياسة فهد الأمراء ويظهر للرسل تقديره لأبي مسلم حتى عندما له التقدم على أخيه، سوى ميراث، وهو أمير أشار على أبي مسلم أن يقبل أن يعفو ويستخلف غيره.

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء، وأمره أن يكلم أبا مسلم بالذي كلاماً يقدر عليه، وأن يكون في جملة ما يكلمه به أنه يريد رفع قدرك، وعلو منزلتك، والاحتفاظ لك، فإن جاء بها فذاك، فإن أبى، فقل: هو مولاه من العباس إن شققت العصا بعدت على وجهك ليدركك بعده وليفاتشك دون غيره، وأسر خلف البحر المقسم عاصيه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك، ولا تقل له هذا حتى تأنس من رجوعه بأني هي أحسن. فلما قدم عليه أمراء المنصور (جاوزوا) دخلوا عليه ولاعوه فيما هم به من مبايعة أمير المؤمنين، وما هو فيه من مخالفته، ورغبوه في الرجوع إلى الطاعة، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه، وجنوده طوعاً له. فإن استقام له الخليفة، وإلا كان في عز ومنعة من أحد. فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم: إرجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به. فلما سمع ذلك كسره جداً وقال: قوموا عني الساعة.

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود ابراهيم بن خالد، فكتب إليه المنصور في قضية أبي مسلم حين انهم: إن ولاية خراسان لك ما بقيت، وقد ولينكها وعزلت عنها أبا مسلم. فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من مبايعة الخليفة: إنه ليس يليق بنا مبايعة خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام. فرأيه ذلك كسراً أيضاً. فبعث إليهم أبو مسلم: إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به. فبعث أبا

إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو ردّه. فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتهم معظمين لك عارفين قدرك، فغرّه ذلك، وعزم على الذهاب إلى الخليفة، فاستشار أميراً يقال له نبرك، فنهاه، فصمم على الذهاب، فما رآه نبرك، عازماً على الذهاب قال بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له: احفظ عني واحدة. قال: وما هي؟ قال: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه. قال أبو أيوب كاتب الرسائل: فدخلت على المنصور وهو جالس في حباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر، وبين يديه كتاب فألقاه إلي فإذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه، ثم قال الخليفة: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. قال أبو أيوب: فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وبتّ تلك الليلة لا يأتيني نوم، أفكر في هذه الواقعة، وقلت: إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شرّ إلى الخليفة، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة. فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له: هل لك أن تتولى مدينة «كسكر» فإنها مغلة في هذه السنة؟ فقال: ومن لي بذلك؟ فقلت له: فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يولّيك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه. واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له، وقال له: سلّم عليه وقل له: إنا بالأشواق إليه. فسار إليه ذلك الرجل - وهو سلمة بن فلان - إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسرّه ذلك والشرح، وإنما هو غرور ومكر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى مدينة، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤجل قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل

ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم، ثم قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني. فخرج من عنده فجاء الناس يسلمون عليه، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرني أن أقتل نفسي لقتلتها. قال: فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أفعله. ثم اختار له من عبيد الحرس أربعة فحرّضهم على قتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى يتبع بعضها بعضاً، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يتبسم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة فيعتذر عن ذلك كله[1]. ثم قال له: لم قتلت سليمان بن كثير، وابراهيم بن عيينة، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور، وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني، وصفق بيديه، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً وألقوه في عباءة[2]. وكان قتله في أواخر شعبان من عام ١٣٧ هـ.

ثم إن المنصور شرع في تأليف قلوب أصحاب أبي مسلم بالأعطيات، والترغيب والترهيب، والولايات، ووفى لأبي داود ابراهيم بن خالد بولاية خراسان إذ أبقاه عليها.

ولم يكن أبو مسلم زنديقاً كما رماه بعضهم، ولكن يظهر أنه كان يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء العاشر.
(٢) المنتظم السابق.

العباسية ـ والله أعلم بأمره ـ . وقد روي أن عبد الله بن المبارك قد سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول ان أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه. وربما كان اتهامه ادعاء حركات الزندقة بعده بصلتها به استغلالاً لاسمه وجسمه.

كان أبو مسلم يقتل لأقل إشارة أو شك في عدم الطاعة، أو تنفيذ الأمر، ولذا كان الناس جميعاً يخشونه، وربما كان أصدقاؤه أكثر الناس خوفاً منه لنبحة صدقهم به فأي تصرف ربما يفسره بما يخطر على باله فتكون العاقبة القتل، وقد يكون قواده وخاصة أتباعه أكثر الناس راحةً واطمئناناً بعد قتله، حيث كانوا على خوف دائم، ولذا كانوا يكثرون التملق له، ويزاودون في اظهار الطاعة اصدقاؤه وأعداؤه على حدٍ سواء. ومن هنا كان قبضه على ناصية الأمر في خراسان، فالجميع يريدون الخدمة، ويتبارون في إلقاء أنفسهم أمامه لتنفيذ ما يشير إليه. تطال يده القاصي والداني، والصديق والعدو، والقريب والغريب.

ويقال: إن المنصور قد استدعى رؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله، فكلهم يشير بقتله، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا ينقل إليه، فلما أطلعهم على قتله أقرهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً.

ويقال: إنه لما عزم على قتل أبي مسلم أنشد:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تهبل الأعداء يوماً لغدرة ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكتفيتك خلات ثلاث ... جلبن عليك نحوم الحمام
خلافك وانتماءك من يمني ... وقتلوك للجماهير العظام

ومن شعره أيضاً:

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عمر قد يضره

تبل بشاشته وبه ... سقي بعد حلو العيش مرته
وتحونه الأيام حتى ... لا يسر شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلكـ ... ـت وقائل لله دره[1]

وعندما حج المنصور عام ١٤٤ استخلف على الحيرة والعساكر القائد حازم ابن خزيمة، ولما وصل أبو جعفر إلى المدينة استقبله الناس، ومنهم عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فسأله عن ولديه محمد وابراهيم فحلف له بأنه لا يعرف مكانهما. وما ذاك إلا أن محمد بن عبدالله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في اواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان من جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبدالله بن الحسن وأخوه ابراهيم منه خوفاً شديداً.

وذلك لأن المنصور توهم منهما أنهما لا بد ان يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان، والذي توهم منه المنصور وقع فيه، فذهبا هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند فاختفيا بها، فدلّ على مكانهما فهربا إلى موضع آخر و... ولم يستطع المنصور العثور عليهما.

وألح المنصور على والدهما في طلب ولديه فغضب عبدالله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما، فغضب المنصور، وأمر بسجنه، كما أمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بسجن بني حسن عن آخرهم فحبسهم.

وجدّ المنصور في طلب محمد وابراهيم جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكتمان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما أحد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولّي عليها غيره ويحرّفه على إمساكهما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

والتفتيش عنها، وبذل الأموال في طلبها . . ولكن دون جدوى.

وقد عزم أنصارها على الفتك بالمنصور في بعض السنوات بين الصفا والمروة إلا أن عبدالله بن حسن قد نهاها لشرف البقعة، وقد أطلع المنصور على ذلك من بعض أمرائه وهو أبو العساكر خالد بن حسان إذ كان من أتباع محمد بن عبدالله بن حسن، ومن الذين كانوا يريدون الفتك بالمنصور، إذ عذبه المنصور حتى أقر بما كانوا قرروه. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبدالله ابن حسن نهانا عن ذلك.

وجاء محمد بن عبدالله إلى أمه فقال: يا أمه! إني قد شققت على آبي وعمومتي، ولقد عزمت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي، فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا ولا كرامة، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر، وفرجنا بيد الله إن شاء فرج هنا، وإن شاء ففي . واتفقوا كلهم على ذلك.

ونقل المنصور آل حسن من سجن المدينة إلى سجن العراق، كما نقل معهم محمد بن عبدالله العثماني[1]، وكان أخا عبدالله بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجة لإبراهيم بن عبدالله بن حسن. وقد هلك أكثرهم بالسجن، وخرج من بقي منهم بعد وفاة المنصور.

فساق محمد بن عبدالله فرساً بوصفه، وأخبر به شدة الاختفاء، وإلحاح نائب المدينة في طلبه، وتأنيب أهل المدينة له في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج في آخر يوم من جمادى الآخرة إذ سار مع مائتين وخمسين من أتباعه فمر على السجن فأخرج من فيه، وانطلق إلى دار الإمارة فدخلها، وقبض على أميرها رياح بن عثمان فسجنه، ودانت له المدينة، وول على الناس

(١) محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، أبو عبدالله، أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب.

عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى القضاء عبد العزيز بن المطلب بن عبدالله المخزومي، وعلى الشرطة عثمان بن عبدالله بن عمر بن الخطاب.

ووصل الخبر إلى المنصور فندب له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة وله الأمان. وسار عيسى بن موسى بعشرة آلاف فارس ومعهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة، وجعفر بن حنظلة.

وأرسل محمد بن عبدالله إلى مكة المكرمة الحسن بن معاوية فدخلها، وعزم السري بن عبدالله صاحب مكة. كما بعث برجال إلى أهل الشام ليأخذوا له البيعة من رجالها، فمنهم من أجاب، ومنهم من امتنع وقد انهكت الحرب البلد، ومنهم من قال: خرج محمد بن عبد الله في المدينة وليس فيها مال يستعين به على استخدام الرجال.

فحصّن محمد بن عبدالله بالمدينة وحفر خندقاً حولها، ووصل إليها عيسى بن موسى فدعا محمد ثلاثة أيام إلى الطاعة فردّه وخذل عيسى عن محمد أصحابه بإعطائهم الأمان، وأن هدفه هو أخذ محمد إلى العراق إلى الخليفة وحده، فانفرط عقد أهل المدينة وتفرق عن محمد كثير من أصحابه وخاصة بعد أن قال لهم: إني جعلتكم في حلٍّ من بيعتي، فمن أحبّ منكم أن يقيم عليها فعل، ومن أحبّ أن يتركها فعل، فتسلل أكثرهم، ولم يبق معه إلا قلة منهم.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس من جيشه نزلوا على طريق مكة كي لا يتمكن محمد بن عبدالله من الهرب إلى مكة، واستمرت الرسل بين الطرفين ثلاثة أيام في بداية العشر الثاني من شهر رمضان من العام نفسه. فلما كان اليوم الثالث تصافّ الطرفان، وكان مع عيسى بن موسى أكثر من أربعة آلاف، ولم يزد أصحاب محمد على الثلاثمائة إلا قليلاً. واقتتل الفريقان، وترجل محمد إلى الأرض وقاتل قتالاً شديداً فقضى على أكثر من سبعين رجلاً من أصحاب عيسى، وأحاط بأصحابه جيش العراق فقتلوا الكثير، واقتحموا الخندق، ولم

نزل الحرب حتى صلى الناس العصر، وبعد الصلاة حميت الحرب، وتقلبت الكثرة، وفرّ عدد من أتباع محمد وبقي في قلة تناقصت تدريجياً حتى بقي وحده، وما تقدم إليه أحد إلا هلك حتى تكاثر عليه القوم، وضربه رجل بسيف فسقط على ركبتيه يحمي نفسه، ثم تقدم إليه حميد بن قحطبة وقد أثخنته الجراح وعجز عن المقاومة فحز رأسه، وأرسله إلى المنصور، ودفن الجثة بالبقيع أما عيسى بن موسى فقد اتجه إلى مكة وعليها الحسن بن معاوية من قبل محمد بن عبدالله، وكان قادماً إلى المدينة نجدة له، فلما بلغه مقتله فرّ إلى البصرة حيث قد خرج فيها ابراهيم بن عبدالله. ودخل عيسى بن موسى مكة، وقد أناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً، ثم بعث المنصور لها عبدالله بن الربيع فعاث جنده في المدينة فساداً فثار عليه السودان ففرّ من وجههم بعد أن قتلوا عدداً من جنده ثم رجع إليهم فهزموه فانهزم منهم، وخالف أهل المدينة دعية ذلك فكفّوا مواليهم وفرّقوهم، وعاد عبدالله بن الربيع فتكفل برؤوس السودان.

ووصل ابراهيم بن عبدالله إلى البصرة متخفياً بعد أن اتفق وأخوه على الخروج في وقت واحد. وكان وصوله إليها عام ١٤٣، واختبأ بها، ثم خرج وبايعه الناس، وقد دعا لأخيه محمد. وكان عامل البصرة للمنصور سفيان بن معاوية، وكان يؤيد ابراهيم ضمناً، وبدأت أعداد تفد إلى البصرة لمبايعة ابراهيم، والمنصور يرسل من يكمن لهم بالطريق ويقتلهم، وخرج ابراهيم في غرة شهر رمضان، وحاصر الأمير سفيان بن معاوية، فطلب منه الأمان، فأمنه وسحبه مقيداً، وأراد بذلك أن يبرىء ساحته عند الخليفة، كما انتصر على جعفر ومحمد ابني سليمان بن علي عم المنصور، وأرسل إلى الأهواز الرسل فبايعه أهلها، ودخلوا في طاعته، ثم أخذها من محمد بن الحصين بعد انتصاره عليه، كما أخذ فارس، والمدائن، وواسط، والسواد كافة، وبلغه قتل أخيه محمد الذي لم يستمر في حركته أكثر من ٧٤ يوماً (١ رجب - ١٤ رمضان)، ونعى إلى

الناس أخاه في يوم العيد، وهذا ما جعل الناس يزداد حقدهم على المنصور، لكنه في الوقت نفسه داخلهم شيء كبير من الخوف والحيرة، إذ أيقنوا بالهزيمة.

كانت جنود الخليفة متفرقة بعضها في إفريقية مع محمد بن الأشعث، وبعضها الآخر في الحجاز مع عيسى بن موسى، وبعضها في الري أرسلها مع ابنه محمد المهدي، وليس عنده سوى ألفي فارس وأهل الكوفة ينتظرون به الدائرة لينضموا إلى ابراهيم، فبعث إلى ابن أخيه عيسى بن موسى أن أقبل بمن معك، وبعث إلى ابنه أن أرسل خازم بن خزيمة إلى الأهواز ليخلصها من ابراهيم، وقد تمكن فعلاً من الانتصار على الثغرة عامل ابراهيم عليها. كما بعث إلى كل مدينة خرجت عن طاعته قوة ترد.

عسكر ابراهيم خارج البصرة وجعل عليها غلبة بن مرة وبعث ابنه حسن بن ابراهيم. ثم سار هو باتجاه الكوفة، ونزل في (باخرى)[1] وجاءه عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وكان جيش ابراهيم عظيماً إلا أن الآراء قد اختلفت فيه فمنهم من يرى الذهاب إلى الكوفة من خلف جيشها بطائفة من أهل البصرة والنيل من الخليفة وتسلم الأمر، ومنهم من يرى حفر خندق، ومنهم يرى مباغتة عيسى بن موسى، ومنهم من يرى الكراويس وآخر الصفوف و.....

وتصافّ العسكران في (باخرى)، ونشب القتال، وهزمت مقدمة عيسى ابن موسى بإمرة حميد بن قحطبة وقتلوا منهزمين، وثبت عيسى بن موسى في مائة من أصحابه، وحجز الفارين نهر فعادوا، وعاد القتال من جديد فهزم جيش ابراهيم وثبت هو في خمسمائة من أتباعه، ثم قتل ابراهيم مع من قتل، وكان ذلك في ٢٥ من شهر ذي الحجة من عام ١٤٥ أي أن أمره قد دام مائة وخمسة عشر يوماً (١ رمضان - ٢٥ ذي الحجة)، وكانت دعوته في بداية

---

(١) باخرى: موضع بين واسط والكوفة، وهو إلى الكوفة أقرب، وقد قهر ابراهيم

الأمر لأخيه محمد فلما جاءه نسأ مقتله وهما لنفسه.

وعندما علم المنصور بخبر مقتل ابراهيم بكى بكاءة مُرّاً، والواقع أن المنصور قد أخطأ إذ أساء التصرف مع عبدالله بن حسن حتى أحرجه فأخرج ولديه محمداً وابراهيم، وكان مع أن حسن جباراً قاسياً، ولكنه الملك، ولابد برأيه من المحافظة عليه، والذين فيه يخرجه من يديه، والقسوة تنبيه. فقبح الله الدنيا وزخرفها وغرورها.

وبنى مدينة بغداد، وسكنها في صفر من عام ١٤٦ حيث تم البناء، وكان سورها ثالوثياً، وعرضه خمسون ذراعاً في أسفله، وعشرون في أعلاه، وله ثمانية أبواب، وكذا السور الداخلي، إلا أن الأبواب الداخلية والخارجية غير متقابلة، ونقل الأبواب من مدينة واسط، كما حاول نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد. كما بنى سوراً لمدينة الكوفة، وأنشأ مدينة الرافقة، ووسع المسجد الحرام عام ١٣٩.

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٧، استخلف على الكوفة ولي عهده ابن أخيه عيسى بن موسى، وطلب منه قتل عمه عبدالله بن علي، فحذّر عيسى عاقبة ذلك، ونُصح بألا يفعل، خوفاً من مطالبة المنصور له بدمه، ففعل وخبأه، ولم يقتله خوفاً من القصاص منه، ولما عاد أبو جعفر طالبه بدمه، وأراد قتله، فأحضره عندئذٍ، فسجن المنصور عمه عبدالله، ثم لم يلبث أن مات في السجن، واختلف في موته أكان قتلاً أم موتاً، أم تهدّم السجن عليه. كما خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولّى مكانه ابنه محمد المهدي، وبعد مدةٍ عاد فرضي عن ابن أخيه وجعله ولياً للعهد بعد ابنه.

وذهب للحج عام ١٥٨، وما أن جاوز الكوفة حتى أحسّ بالمرض، الذي اشتد عليه فتوفي في مكة في ٧ ذي الحجة.

تزوج أبو جعفر أروى بنت منصور فولدت له محمداً (المهدي) وجعفر

الأكبر، كما تزوج فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيدالله فولدت له عيسى، ويعقوب، وسليمان، وتزوج امرأة أموية أنجبت له فتاةً اسمها العالية، وله جعفر الأصغر من أمّ ولدٍ كرديةٍ، وصالح المسكين من أمّ ولدٍ رومية، والقاسم من أمّ ولدٍ ايضاً. وتوفي ابنه جعفر الأكبر في حياة أبيه.

وحاول أبو جعفر تولية أبي حنيفة النعمان[1] القضاء فأبى.

كان المنصور في أول النهار يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات، والعزل، والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل المنزل واستراح إلى العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته، ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى ينفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه[2].

(١) النعمان بن ثابت، تيمي بالولاء، ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ، كان بيع الخز وطلب العلم في صباه، رفض القضاء أيام عمر بن هبيرة، وكذا رفضه أيام المنصور فسجنه ومات في السجن عام ١٥٠ ببغداد. وهو أحد الأئمة الأربعة في الفقه.

(٢) البداية والنهاية

الفتوحات

توقفت الفتوحات الواسعة في عهد بني أمية منذ أواخر عهد الخليفة عمر ابن عبدالعزيز - رحمه الله - إلا أن أعمال الغزو قد بقيت مستمرة لم تنقطع الصوائف والشواتي عن بلاد الروم الذين بقيت دولتهم قائمة. وإن خرجت من المناطق التي كانت تسيطر عليها في بلاد الشام، وشمالي إفريقية، والأندلس، كما انسحبت من الأجزاء الشرقية من بلاد الأناضول، ودام هذا مدة أيام هشام بن عبد الملك، ثم شُغل الأمويون بأنفسهم، وتضعضعت دولتهم، فتوقفت حتى أعمال الغزو.

وشُغلت الدولة العباسية يوم قامت بتوطيد دعائمها، ويوم رأى أبو العباس أن الأمر قد استقر له أرسل الصوائف إلى بلاد الروم مستأنفاً بذلك الغزو، ومظهراً عودة القوة، وفي الوقت نفسه يريد أن يردع ملك الروم الذي استغل انشغال الدولة وقام بالهجوم على بعض الثغور. وعندما تولى الأمر المنصور شغل في أول عهده بأحداث عمه عبدالله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، وسباذ، وهذا ما جعل قسطنطين ملك الروم يدخل ملاطية عنوة، ويهدم سورها، وإن كان قد عفا عن مقاتليها إلا أنه تقدم في بلاد المسلمين. فلما استقر الوضع للمنصور بعد عام تقريباً من استلامه زمام الأمر، أمر عمه صالح بن علي أن يسير على رأس صائفة فاسترجع ملاطية، وأعاد ما هدمه

قسطنطين، كما سار في الصائفة التالية عن طريق الحدث[1]، ودخل في بلاد الروم، كما فادى المنصور عامها بعض أسارى المسلمين. وبهذا عاد الغزو إلى بلاد الروم بشكل دائم، والشهر من هذه الغزوات غزوة جعفر بن حنظلة البهراني عام ١٤٦، وغزوة العباس بن محمد أخي المنصور عام ١٤٩ حيث توغل في بلاد الروم، وكان معه الحسين بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث الذي توفي في الطريق. وغزوة عبد الوهاب بن ابراهيم بن محمد ابن أخي المنصور عام ١٥١ هـ، وغزوة معيوف بن يحيى الحجوري عام ١٥٣، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة كثيراً، ووقع في أيديهم ستة آلاف أسير، وغزوة زفر بن عاصم الهلالي عام ١٥٤، وغزوة يزيد بن أسيد السلمي عام ١٥٥. وفي الوقت الذي كانت الغزوات تنطلق إلى بلاد الروم كان أبو جعفر يهتم ببناء الثغور كي يرابط فيها المسلمون، وينطلقوا منها مجاهدين فقد بنيت (المصيصة)[2] عام ١٤١ على يد جبريل بن يحيى الخراساني.

أما على الجبهة الشرقية فقد أمر أبو جعفر ابنه المهدي أن يغزو طبرستان، فقام بالغزو، ودخل المنطقة عام ١٤١، إلا أن صاحب طبرستان قد عاد ونقض العهد في العام التالي، وقتل عدداً من المسلمين، فسار إليه خازم بن خزيمة على رأس قوة، فتحصن في حصن منيع، صعّب على المسلمين اقتحامه عنوة، فاحتالوا عليه، وسبيت يومئذٍ أم ابراهيم من المهدي، وأم منصور بن المهدي، وكانتا من بنات الملوك الحسان اللتين تزوجهما محمد المهدي بن المنصور.

وقتل أهل الديلم عدداً من المسلمين عام ١٤٣ فغزاهم المنصور، كما سار إليهم في العام التالي محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه، إذ لا يمكن أن

---

(١) الحدث: ثغر إلى الغرب من ملاطية في جبال طوروس.

(٢) المصيصة: في منطقة كيليكيا على نهر جيحان وهي كثيرة البساتين التي ترد من النهر

بعض المسلمون بأذى في بلاد وبسكت إخوانهم على ذلك إذ يؤدي إلى توقف الدعوة وعدم انتشار الإسلام، ولا بد من أن يشعر المسلمون في أية بقعة بالعزة والقوة، وأن وراءهم أمة قوية، وإن ذلك ادعى لأن يكونوا مهيبين، ويقبل الناس إليهم، ويشعروا بعزة المؤمنين.

وخرج الترك وانحاز بباب الأبواب[1] عام ١٤٥ وقتلوا جماعة من المسلمين في أرمينيا فسار إليهم المسلمون وأذلوهم.

وأغار الشوخان خوارزم في جيش من الترك على أرمينيا، ودخل تفليس[2]، وقتل كثيراً من المسلمين ومن أهل الذمة، وأسر كثيرين آخرين فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة حرب بن عبدالله الراوندي فقتل في بعض المعارك وذلك عام ١٤٧. وأسرع جند بن قحطبة إلى تفليس فوجد الترك قد انسحبوا منها.

كما فتحت كشمير عام ١٥٧ أيام ولاية هشام بن عمرو التغلبي، وكانت قد نقضت العهد.

---

(١) باب الأبواب: في بلاد الداغستان على بحر الخزر حيث تضيق الشعوب الساحلية بالقرب من الخزر، وتسمى الآن دربنت.

(٢) تفليس: عاصمة جورجيا الآن إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي الروسية.

الولايات

تعرضت كثير من الولايات لحركات عنيفة، وكاد بعضها يعصف بالحكم قبل أن يتمكن، وكانت معالجة المنصور لها على درجة من الحكمة والحنكة والحزم والدهاء الأمر الذي قضى عليها قبل أن يستفحل أمرها، وقد قسمها إلى ولايات أخرى.

١ ـ الشام: قام فيها عبد الله بن علي مذ تولى ابن أخيه ابو جعفر الخلافة حيث كان يطمع فيها لنفسه، إذ هو الذي وطّد الحكم للعباسيين، وقضى على خصومهم، ومهّد الطريق للحكم، وكان سيفه البتار. وسار معه أهل الشام بل لم يستطيعوا مخالفته إذ أخذهم اخذ الجبابرة، وحزمهم حزم السلمة، ولكن ما ان انتهى أمره حتى عدأت الولاية، وانطلق أهلها للغزو، والمرابطة في الثغور، واستمر ذلك مدة أيام المنصور.

٢ ـ الكوفة: كان عيسى بن موسى والي هذه الإمارة، وفي عام ١٤١ خرجت فيها جماعة تدعى الراوندية، وأصلهم من خراسان، وقد ادعوا ألوهية المنصور، وقالوا بتناسخ الأرواح، وأن روح آدم عليه السلام قد انتقلت إلى عثمان بن نهيك وحلّت به، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل. وقد جاءوا إلى قصر الخليفة، وأخذوا يطوفون حوله. ولكن المنصور أباد هم جميعاً وانتهى أمرهم. كما تولى أمر هذه الولاية محمد بن سليمان، وعزل عنها عام ١٥٥ إذ تولاها عمر بن زهير.

٣ ـ البصرة: كان سليمان بن علي أمير البصرة، لكن المنصور قد عزله لما علم أن أخاه عبدالله بن علي مختبئ عنده، وولى مكانه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي بعث بعمه عبدالله بن علي إليه فسُجن. ويبدو أن سفيان كان ممالئاً لابراهيم بن عبدالله بن الحسن والذي ظهر قبل موت أخيه، وبايعته الأهواز، كما أخذ فارس، وواسط، والمدائن، والسواد كافة. غير أن خازم بن خزيمة قد سار في أربعة آلاف مقاتل إلى الأهواز فامتلكها، وجاء عيسى بن موسى من الحجاز فالتقى بابراهيم وهو في طريقه إلى الكوفة، وكان حميد بن قحطبة على مقدمة عيسى ولكنه هزم، وثبت عيسى بن موسى، كما ثبت ابراهيم بن عبدالله، وتخلى عنه عدد من أصحابه فقتل هو مع من قتل من أنصاره، واستتب الوضع للمنصور.

عُزل سفيان عن البصرة وتولى أمرها مسلم بن قتيبة ثم عزل بعد عام بمجيء محمد بن سليمان بن علي، ولكن أصبح استبدال ولاة البصرة أمراً عادياً كل عام تقريباً إذ تتابع عليها جابر بن زيد الكلابي، ويزيد بن منصور، وعبد الملك بن أيوب بن عُيينة، والهيثم بن معاوية.

٤ ـ الجزيرة: لم يحدث في الجزيرة من أمر بعد حركة عبدالله بن علي سوى خروج مليد بن خرمة الشيباني في ألف من الخوارج، ولكن انتهى أمرهم سريعاً، واشتهر من ولاة الجزيرة في تلك الحقبة حميد بن قحطبة، والعباس بن محمد أخو الخليفة المنصور.

٥ ـ الموصل: لم يحدث في الموصل شيء، وكان أميرها اسماعيل بن علي، ثم موسى بن كعب الذي عزله المنصور وولى عليها خالد بن برمك.

٦ ـ خراسان: كان أبو داود خالد بن ابراهيم نائب أبي مسلم على خراسان، إلا أن المنصور قد أعلمه في ولاية خراسان إن رد أبا مسلم عنها حتى هم بالعودة إليها. وانتهى أمر أبي مسلم، وبقي أبو داود والياً على خراسان لكن لم

يلبث أن خرج فيها سنباذ مطالباً بدم أبي مسلم، وكان سنباذ مجوسياً فدانت له خراسان، كما أخذ قومس وأصبهان، فبعث إليه أبو جعفر قوة قوامها عشرة آلاف فارس بإمرة جهور بن مرار العجلي فانتصر على سنباذ وقتله، ولم تزد مدة خروجه على سبعين يوماً. غير أن جهور قد أغرته نفسه بانتصاره هذا فخلع الطاعة عام ١٣٨، فأرسل له المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي فهزمه وقتله.

وثارت جماعة في خراسان على أميرها أبي داود خالد بن ابراهيم وحاصرته في داره فوقع ومات، وخلفه صاحب شرطته عاصم حتى وصل إلى مرو أميرها الجديد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، ولم يكمل عامه حيث عزل، وتولى أمر خراسان بعده محمد المهدي ابن الخليفة المنصور فلم يقبل عبد الجبار أمر العزل وإنما خلع الطاعة، فسار إليه المهدي وعلى مقدمته خازم بن خزيمة، فغرّ عبد الجبار ولكن قُبض عليه، وأرسل إلى المنصور فقتله.

وخرج عام ١٥٠ رجل كافر اسمه استاذسيس فعاث فساداً، واستحوذ على أكثر خراسان، فبعث المنصور لابنه المهدي أن يرسل له خازم بن خزيمة فقضى عليه. واشتهر من ولاة خراسان حميد بن قحطبة الطائي عام ١٥٢.

٧ ـ السند: خلع عيسة بن موسى بن كعب الطاعة عام ١٤٢ فأرسل له المنصور قوة بإمرة عمرو بن حفص بن أبي صفرة، فتمكّن عمرو من قهر عيسة وتسلم ولاية السند والهند، حتى استبدل عام ١٥٧ بهشام بن عمرو التغلبي.

وأعطيت إمرة سجستان لمعن بن زائدة عام ١٥١ غير أن الخوارج قد قتلوه في العام التالي.

٨ ـ الحجاز: كان والي الحجاز زياد بن عبدالله بن عبيد الله بن عبد المدان خال السفاح، فعزله المنصور عام ١٤١، وأعطى الولاية لمحمد بن خالد القسري حتى عام ١٤٤ حيث خلفه رياح بن عثمان المزني الذي حدثت في أيامه حركة محمد بن عبدالله بن حسن، وقضى عيسى بن موسى على هذه الحركة

وانتاب على المدينة كلثم بن حصين ولم يبق فيها سوى شهر واحد إذ أرسل المنصور والياً على المدينة عبدالله بن الربيع، وثار السودان عليه فقر من وجههم عزلين، ثم ردته أهل المدينة بعد أن ردعوا مواليهم خوفاً من النتيجة.

عزل عبدالله بن الربيع عام ١٤٦، وأعطيت لجعفر بن سليمان بن علي الذي بقي في الإمارة حتى عام ١٥٠ حتى خلفه عليها الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب حتى عام ١٥٥ حيث أعطيت إلى عبد الصمد بن علي. أما بقية إمارات الحجاز فقد كان أمراؤها تختلف مناطقهم بين مدة وأخرى، فقد تسلّم السري بن عبدالله مكة والطائف، ثم خلفه عبد الصمد بن علي، ثم محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي. وتسلّم معن بن زائدة اليمن عام ١٤١، ويزيد بن منصور عام ١٥٣، وتسلّم قثم بن العباس بن عبدالله بن العباس إمارة البحرين.

٩ - **مصر**: كانت مصر هادئة كعادتها، وتوالى عليها أمراء عدة أيام المنصور، صالح بن علي، وموسى بن كعب، ومحمد بن الأشعث، وتوفل بن الفرات، وحميد بن قحطبة، ويزيد بن حاتم، ومحمد بن سعيد.

١٠ - **إفريقية**: ربما كانت ولاية إفريقية أكثر الإمارات مشكلات وذلك بسبب الخوارج الذين نشطوا في حركاتهم فيها، وبعدها عن مركز الخلافة، وانشغال الدولة عنها. وهذا ما مكّن للخوارج فيها، كما مكّن لعبد الرحمن الداخل في الأندلس.

كانت إفريقية في صراع بين الخوارج الأباضية والصفرية وأصحاب النفوذ من آل عقبة من تابع.

وقامت دولة للخوارج الصفرية في منطقة تافيلت الحصنة طبيعياً إذ أنها على هامش الصحراء وفيها المياه، فكانت دولة صحراوية اقتصرت على التجارة. وقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول الذي عمل هناك راعياً،

واتصل مع الرعاة، وأثر فيهم، فلما وصل عددهم إلى أربعين شخصاً بايعوا عيسى بن يزيد الأسود وذلك عام ١٤٠، ثم دعا أبو القاسم قومه مكانه إلى متابعة عيسى وطاعته، وبنيت مدينة سجلماسة[1] وغرست أشجار النخيل والعنب، وزرعت الخضراوات، وكانت مياه نهر زيز أساساً لهذه المشروعات، والبلدة الصغيرة غير هذه المدينة فزاد عدد سكانها، وكان قوام أهلها من السودان، والأندلس، والبربر، والعرب وفئات مختلفة تنتمي كلها المذهب الصفري من الخوارج.

وتخلى عيسى بن يزيد عن الإمامة، ونُصّب أبو القاسم سمكو، ثم قتل عيسى عام ١٥٥، وبقي أبو القاسم إماماً حتى عام ١٦٨، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته خلافاً للرأي الخارجي في الإمامة بعدم الوراثة.

سالم أبو القاسم سمكو الولاة العباسيين في القيروان، إذ لم ير جدوى من هذه الحركات التي قامت ما دامت دون المستوى المطلوب حتى عده ابن خلدون تابعاً للدولة العباسية، وقد دعا للمنصور والمهدي، وإن هذه المهادنة قد جعلت الدولة الخارجية تستمر وتستقر.

---

(١) سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام للقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل فزاز، وهي في وسط رمال، كرمال زوزو ويتصل بها من شمالها حدود من الأرض، غربها نهر كبير يفاض قد غرسوا عليه بساتين وفيلاً عند البحر، وعلى أربعة فراسخ منها رمال يقال له تيوسيت على نهرها الجاري فيه من الأعاجيب الشديدة الحلاوة ما لا يحد، وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين فحوة ودقلة، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر، وقليلهم قليلة، ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأثر تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر، ويصطرفون منها قنطارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصفونها بأنواع الأصباغ، وبين سجلماسة وغرها أربعة أيام، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها. «معجم البلدان»

١٩ ـ الأندلس، لم يعلن عبدالرحمن الداخل نفسه خليفة، إذ يعلم أنه لا يصح أن يكون في بلاد الإسلام إلا خليفة واحد، ومن هذا المنطلق فقد كان يدعو للخليفة من العباسيين بصفته امير المؤمنين ويقيم للناس أميراً في موسم الحج، واستمر على هذه الحالة مدة حتى حدثت عنده امور منها:

حاول يوسف بن عبد الرحمن الفهري استرداد نفوذه وذلك برأي الصميل ابن حاتم، ففرّ يوسف من قرطبة إلى ماردة عام ١٤٢، وجمع جيشاً حوله، وأعلن العصيان، وأراد غزو قرطبة، فسار إليه عبد الرحمن وتمكّن من هزيمته وقتله، أما الصميل بن حاتم فقد سجن في قرطبة ومات في سجنه مسموماً.

وعمل المنصور على القضاء على عبد الرحمن فشجع العلاء بن مغيث الجذامي في باجة[1] على مناهضة عبد الرحمن، والدعوة للعباسيين هناك، وأرسل له الراية العباسية. ولما تقوّى العلاء قام بالثورة عام ١٤٧، فسار إليه عبد الرحمن غير أنه قد هزم أمام العلاء، فسار الى قرمونة[2] شرق اشبيلية فتبعه العلاء وحاصره فيها مدة شهرين، ثم يجد عبد الرحمن بعدها بُدّاً من القيام بعملية فدائية فخرج على خصمه جرأة مع سبعمائة من أتباعه على حين كان خصومه لا يحصى عددهم، فتمكّن من فك الحصار المضروب عليه ومداهمة العدو وقتل العلاء وأرسل رأسه محتفظاً إلى المنصور أثناء الموسم حيث وضع أمامه، فكفّ المنصور بعدها عن العمل في الأندلس. وسمي عبد الرحمن الداخل باسم صقر قريش.

عند ذلك قطع عبد الرحمن الخطبة للعباسيين ولكن لم يعلن نفسه خليفة إذ بقي متقيداً بالفكرة الإسلامية، ولم يجب أن يبدأ بالمخالفة رغم ما أقدم عليه المنصور وحتى المهدي من بعده.

---

(١) باجة: مدينة في الغرب الجنوبي من البرتغال اليوم.
(٢) قرمونة: بلدة في الأندلس، واسمها الصحيح قرمونة.

الخوارج

نشط الخوارج بصورة عامة أيام المنصور، وإن كانوا قد فشلوا في الشرق إلا أنهم قد نجحوا في بلاد المغرب إلى حدٍّ ما، فثوراتهم كانت محدودة في الشرق حيث يخرج الزعيم في جماعة معدودة في منطقة ويتمكن من هزيمة جيوش الخليفة لكن لا يلبث ان ينهزم إذ تأتي النجدات لجيوش الدولة فيفرّ من منطقة إلى أخرى حتى يقضى عليه، وربما كانت نشاطاتهم في الشرق كأنها إشغال للدولة عن أمور المغرب كي يتمكّنوا فيها هناك.

خرج مليد بن حرملة الشيباني عام ١٣٧ بالجزيرة في ألف مقاتل من الخوارج، وهزم قوات الخليفة فسار إليه جيد بن فحطبة إلا أنه هزم وتحصّن واضطر أن يصالح مليداً على دفع مائة ألف على أن يقلع عنه ففعل، وسار إليه خازم بن خزيمة عام ١٣٨ فانتصر عليه وقتله.

واستطاع عاصم بن جميل أن يهزم حبيب بن عبد الرحمن الذي فرّ إلى قابس، وهذا ما فسح المجال لعاصم من دخول القيروان عام ١٣٩، فولى عليها عبد الملك بن أبي الجعد، وسار هو خلف حبيب الذي فرّ إلى أوراس حيث ألف هناك قوة تمكّنت من هزيمة الصفرية وقتل عاصم. وسار حبيب نحو القيروان بعد انتصاره هذا غير أنه هزم أمام عبد الملك بن أبي الجعد وقتل في المعركة، وهكذا دانت المغرب كلها للصفرية.

أما الأباضية فقد رجع بعض كبارهم من الشرق عام ١٤٠، وتذكروا

جيوشهم في المغرب الأدنى، حيث كثر أتباعهم، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي استطاع ان يستولي على طرابلس[1]. ثم سار إلى قابس فأخذها، واتجه إلى القيروان فالتقى بعبيد الملك بن أبي الجعد خارجها فهزمه وقتله واستولى على القيروان عام ١٤١ وولى عليها عبد الرحمن بن رستم.

أرسل المنصور إلى إفريقية محمد بن الأشعث، فبعث طلائعه بقيادة أبي الأحوص بن عمرو بن الأحوص فأسرع إليه أبو الخطاب والتقى قرب سرت فهزمه، وانطلق محمد بن الأشعث بنفسه نحو أبي الخطاب فالتقى به عام ١٤٤ في (ناورغا)[1] فانتصر عليه وقتله، وسار نحو القيروان فأخذها وهكذا وطّد محمد بن الأشعث الخزاعي نفوذ الدولة العباسية في المغرب الأدنى وأزال الأباضيين عن القيروان.

بعد أن هزمت الصفرية في المغرب الأدنى اتجه أنصارها نحو المغرب الأوسط والأقصى، واستطاع أبو قرة من تأسيس دولة في ناحية تلمسان، كما استطاع (أبو القاسم سمكو بن واسول) من إرساء قواعد دولة بني مدرار في سجلماسة.

أرسل محمد بن الأشعث جيشاً لمحاربة أبي قرة الصفري في تلمسان في المغرب الأوسط بإمرة الأغلب بن سالم التميمي وذلك عام ١٤٨، غير أن الجند قد ثاروا على ابن الأشعث فما كان من المنصور إلا ان أرسل بولاية الأغلب على إفريقية. وسار الأغلب إلى المغرب الأوسط فالتقى بالزاب بجيش أبي قرة فانسحب أبو قرة إلى تلمسان فلاحقه الأغلب ولم تبه مواصلة السير إلى المغرب الأقصى فأحس الجنود بطول الغارة وبعدت عليهم الشقة فثاروا على الأغلب وقتلوه عام ١٥٠.

وصل عمرو بن حفص المهلبي والياً على القيروان بعد أن عزل عن السند،

---

[1] عاودها في أيام بن طرابلس وسيرت على ساحل البحر

واسترد في طريقه طرابلس وكان قد دخلها الخارجي أبو حاتم الدوري عام ١٥٠، وما استقر عمرو بن حفص في القيروان حتى جدّ السير نحو المغرب الأوسط لمداهمة الصفرية، واستقر في الزاب في (طبنة)، وسار خلفه أبو حاتم وحاصر القيروان عام ١٥٣، غير أنه ترك حصارها وتبع عمرو بن حفص الذي تحصّن في (طبنة)، وكان الخوارج قد جاءوه من كل جهة فقد تبعه الأباضية بقيادة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم، وجاءته الصفرية بقيادة أبي قرة، وعبد الملك ابن سكردید، وجرير بن مسعود.

انسحب أبو قرة بالصفرية من حصار (طبنة) فاستطاع عمرو بن حفص عندها من هزيمة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم والأباضية معهما، وسارت الأباضية نحو القيروان فسبقها عمرو، ودخل القيروان، فحاصرته الأباضية فيها، وقتل عمرو في الحصار، وتولى بعده قيادة الجند أخوه لأمه جميل بن صخر، فعقد أبو حاتم زعيم الأباضية معه صلحاً ودخل إثره القيروان في أواخر عام ١٥٤.

وكان عمرو بن حفص قبل أن يغادر (طبنة) قد أرسل (المهنأ بن المخارق ابن غفار الطائي) لملاحقة أبي قرة فتبعه وهزمه.

وجاء يزيد بن حاتم[1] والياً على إفريقية عام ١٥٥، وأسرع أبو حاتم زعيم الأباضية من القيروان لملاقاته، وانتصر على طلائع جيشه لكنه هزم أمامه فاعتصم بجبل نفوسة. ودخل يزيد بن حاتم القيروان، وثار الأباضيون ثورة أخرى بإمرة أبي يحيى بن قرناس الذي زعم قبيلة هوارة لكن قضي على هذه الثورة بسرعة وقتل قائدها وعامة أصحابه وذلك عام ١٥٦.

وكما انتصر يزيد بن حاتم على الأباضية في المغرب الأدنى كذلك انتصر

---

[1] يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة

على الصفرة وبطش بها في المغرب الأوسط. وكانت دعامته في ذلك ابن المهلب، والعلاء بن سعيد. وهكذا استطاع يزيد بن حاتم أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠ .

-٣-

المهـدي

محـمد بن عبـد الله

١٥٨ - ١٦٩هـ

ولد محمد المهدي بن المنصور عام ١٢٦ ببلدة إيذج، وأمه أروى بنت منصور بن عبدالله الحميري، وتُكنّى بأم منصور كما تُكنّى بأم موسى، وكان أسمر طويلاً، جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المنصور في ذي الحجة من عام ١٥٨، وعندما بلغه نبأ وفاة والده كتم الخبر يومين، ثم نادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب، وأمر فأطاع، واعزورفت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقلدت جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس أسرّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا، تهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، وأخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم».

وكان جواداً كريماً محبباً إلى الرعية فمنذ تولّى الأمر أخذ في رد المظالم،

---

(١) إيذج: كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان، وهي وسط الجبال، تدوم الزراعة فيها على الأمطار، ويشرب أهلها من عين سليمان.

وأخرج ما جمع أبوه وفرّقه بين الناس، ولم يعط أهله وموالية.

وأول من هنّأه بأبيه وهنّأه بالخلافة أبو دلامة فقال:

عيناي واحدة تسرّ مسرورة ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكي، وتضحك تارة ويسوؤها ... ما أنكرت، ويسرّها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة مغرماً ... ويسرّها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أمرحه وآخر ينتف
هنيك الخليفة يا لمديين مجدٍ ... وأتاك من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافةٍ ... ولذاك جنّات النعيم تزخرف

أطلق السجناء إلاّ من كان مسجوناً على دم، أو فساد في الأرض، أو عنده حق لأحد.

ومن أخبار جوده أن امرأة وقفت للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحدٍ غيرها، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم. ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرّقها ابن الخياط وأنشأ يقول:

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فبددت ما عندي

وبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن ابراهيم[1] فحدثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا

(١) غياث بن ابراهيم كذاب، قال عنه أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: سمعت أكثر من واحد يقول: إنه يضع الحديث. وقال البخاري: تركوه.

في خفّ أو نصل أو حافر». وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأعلم أن غياثاً كذب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح، ولم يذكر غياثاً بعدها.

بنى مسجد الرصافة عام ١٥٩، ووسّع المسجد الحرام عام ١٦٧.

وولى القضاء أبا يوسف[1] عام ١٦٦، وتتبع الزنادقة وعمل على إبادتهم.

بايع لولديه موسى الهادي عام ١٦٠ ثم لهارون الرشيد، وذلك بعد أن أكره ابن عمه عيسى بن موسى على خلع نفسه.

وعرف بسماحة الأخلاق، وقد ذهب مرة إلى البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ - يعني المؤذنين - فأمرهم بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يُكبّر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء. فكبّر فتعجّب الناس من سماحة أخلاقه.

تزوج عام ١٥٩ ابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، كما تزوج وهو في المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وأعتق جاريته الخيزران وتزوج بها، وهي أم ولديه الهادي والرشيد، وكان مفتتناً بها.

وعزم في أواخر عهده أن يقدّم ابنه الرشيد في الخلافة على الهادي، وكان الهادي بجرجان فدعاه فلم يُلبِّ فسار إليه بنفسه، وبينما هو في ماسبذان إذ أدركته الوفاة في ٢٢ محرم من عام ١٦٩ فكانت خلافته عشر سنوات وشهر ونصف الشهر. واختلف في سبب موته أكان بالسم خلطاً من إحدى جواريه أم بإصابة ظهره بجانب خربة دخل فيها جواده.

(٢) أبو يوسف: يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، البغدادي، صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، ولي القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد، ولد بالكوفة عام ١١٣، وتولى ببغداد وهو على القضاء عام ١٨٢

الغزو والفتح

منذ أن تولى المهدي الخلافة بعث العباس بن محمد على رأس جيش إلى بلاد الروم، كما أرسل جيشاً آخر إلى بلاد الهند. وكان متجهاً بصورة عامة إلى بلاد الروم حيث ما تنفك الصوائف تنطلق من الثغور فتغير على أرض الروم، وإن كانت لم تحدث فتوح واسعة أو تضم مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام بصورة دائمة إلا أن الانتصارات كانت كبيرة والغنائم كثيرة، وأعداد الأسرى من الروم وفيرة. وكانت الثغور هي نفسها على ذرا جبال طوروس وتمتد من طرسوس على ساحل البحر المتوسط نحو الشمال الشرقي حتى أرضروم.

وتوغل الحسن بن قحطبة عام ١٦٢ في بلاد الروم، وأحرز انتصاراً واضحاً، ولكن كثرت الفتوح بعد ذلك حيث تولى ابنه الرشيد أمرها إذ سار على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيماً، وأصبح بعد ذلك والياً على الشطر الغربي من الدولة الاسلامية من الأنبار حتى الأندلس.

وسار عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على رأس قوة إلى بلاد الروم عام ١٦٤، وأصاب غنائم كثيرة، وأسر من الروم الكثير أيضاً. وبعد عام سار الرشيد ووصل إلى سواحل بحر مرمرة، وصالح أغسطة امرأة ليون، وكانت عاهلة الروم. واستمرت الهدنة سنتان ثم نقض الروم العهد عام ١٦٨ فسار إليهم والي الجزيرة وهو يزيد بن بدر بن البطال فغنم وظفر.

الحركات

لقد وطد المنصور لابنه الأوضاع، وأخضع له الرقاب، لذا لم تقم في أيام المهدي حركات واسعة، ولم ينشط منافسوه سواء من الطالبيين أم من غيرهم، ومع هذا فقد قامت حركات محلية بسيطة منها:

١ ـ خروج يوسف بن ابراهيم المعروف بالبرم، وكان خروجه بخراسان عام ١٦٠ فسار إليه يزيد بن مزيد فتمكن منه وأسره، وأرسله إلى المهدي مع كبار أنصاره فقتلوا جميعاً.

٢ ـ وخروج المقنع في قرية من قرى مرو حاضرة خراسان، واسمه عطاء، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وأن الله قد ظهر في صورة آدم لذا سجدت له الملائكة، ثم ظهر في صورة نوح، ثم في صور الأنبياء الواحد بعد الآخر حتى كان في صورة أبي مسلم وأخيراً صار إليه لذا فقد ادعى الربوبية. وكان أعور قبيح المنظر لذا فقد اتخذ له وجهاً من ذهب. وكان خروجه عام ١٦١ فأرسل له المهدي عدداً من القادة، ثم أفرد له سعيد الحرشي فلجأ المقنع إلى قلعة (كَشّ)[1]، وكان قد جمع فيها الطعام، وحصنها، فلما اشتد عليه الحصار وشعر بالغلبة احتسى السم هو وأهله فماتوا جميعاً وذلك عام ١٦٣ هـ.

٣ ـ وخروج عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة، وقوي أمره،

---

(١) كَشّ، مدينة في بلاد ما وراء النهر، وهي المقصودة هنا، كما توجد بلدة على جبل بالجزيرة من جرجان على بعد ثلاثة فراسخ تحمل الاسم نفسه، وثالثة من قرى أصبهان.

وأحرز النصر على عدد من قادة المهدي وجيوشه، وسار إليه أخيراً شبيب بن واج المروروذي ولكنه هزم أمامه أيضاً، فلما جاء دعم إلى شبيب انتصر وفر عبد السلام أمامه إلى قنسرين فتبعه، وتمكن من قتله فيها عام ١٦٢، وعين السلام هذا من الخوارج الصفرية.

٤ - وخروج ضحية بن مصعب بن الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم عام ١٦٥ وتغلب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد يعود الدولة العباسية بسهي من الصعيد، وهذا ما جعل الخليفة المهدي يغضب على واليه في مصر ابراهيم بن صالح بن علي العباسي ويعزله ويرسل مكانه موسى بن مصعب بن الربيع التميمي عام ١٦٧، ولكنه فشل كذلك في القضاء على ثورة ضحية، رفضا على السكان فسلموه الجند وتخلوا عنه للثائرين فقتل، وجاء بعده حسام بن ضرار المعافري، وقد فشل كذلك. واستمرت الثورة حتى أيام الهادي.

الخوارج

بقيت دولة الخوارج في سجلماسة، وتولى عام ١٦٨ أبو القاسم سمكو وخلفه ابنه الياس الذي عرف باسم «أبو الوزير». وبقي على سيرة أبيه في موادعة ولاة القيروان.

كما قامت دولة للخوارج من الأباضية في تاهرت[1] إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١، وأصبح عبد الرحمن بن رستم[2] إماماً لهذه الدولة. وقد هادن ولاة القيروان أيضاً مثل حكام الدولة الصفرية في سجلماسة.

---

(١) تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة. بينهما وبين البصرة ست مراحل، وهي بين تلمسان وطنجة بني حماد. وهي مدينة مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب الطواحين، وهي في سفح جبل يقال له جزول، وفيها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاشن، ومنه شرب أهلها وأرضها، وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حساً وطعماً.

(٢) عبد الرحمن بن رستم: عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبهرام هو مولى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه. انتقل عبدالرحمن إلى المغرب في نهاية القرن الأول، والده إلى المشرق مع الأباضيين حيث بقوا هناك من ١٣٥ - ١٤٠ تولى نيابة القيروان عندما أخذها الأباضيون من الصفرية عام ١٤٢، وخرج منها لنصرة إمامه المعافري في فاس حيث قتل هناك عام ١٤٤ على يد محمد بن الأشعث الخزاعي، فرجع عبد الرحمن إلى القيروان، ثم غادرها واتجه إلى المغرب الأوسط حيث تخصن فيها من ابن الأشعث، وسار بعدها إلى موقع تاهرت.

الأندلس

حاول المهدي ـ كما حاول أبوه المنصور ـ التخلص من عبد الرحمن غير أنه فشل كسابقه. إذ كان حاكم سرقسطة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي يختلف مع عبد الرحمن الداخل لأمور سياسية. فاتفق هذا مع شارلمان حاكم الفرنجة لمناهضة عبد الرحمن الداخل، وقد كان المهدي على رضى من هذا الاتفاق، وأرسل هو أيضاً من طرفه عبد الرحمن بن حبيب الفهري لينزل على شواطئ الأندلس الجنوبية، في الوقت الذي يجتاز شارلمان حدود الأندلس من الشمال.

نزل عبد الرحمن الفهري في تدمير[1] (مرسيه) على شاطئ الأندلس الجنوبية، ولكن كان وصوله قبل دخول شارلمان، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وتمكن من قتله.

ووصل شارلمان إلى سرقسطة غير أن السكان رفضوا تسليم بلدهم لرجل نصراني، وقاموا بثورة قادها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الأنصاري، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه شارلمان وحليفه ابن الأعرابي، وذلك عام ١٦٦ فاضطر شارلمان إلى العودة من حيث أتى وأخذ معه سليمان بن يقظان من الأعرابي كأسير حرب إذ عده قد خدعه، وكان من أسباب عودة شارلمان أيضاً أن القبائل الجرمانية ـ السكسونية قد تركت النصرانية وعادت شارلمان.

وبينما كان شارلمان يجتاز الحدود من جبال البرانس إذ هاجمت قبائل

---

[1] تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأعمال كورة جيان، وهي شرقي قرطبة بينهما ستة أيام.

البشكنس مؤخرة جيشه ومعها أبناء سليمان الذين أعادوا أبيهم. وكان عبد الرحمن الداخل قد شجع هذا الهجوم... ثم قتل سليمان هذا. وحكم الحسين بن يحيى الأنصاري سرقسطة، واستقر وضع الداخل في الأندلس، خاصة أنه سار عام ١٦٤ إلى سرقسطة ودخلها، وحسن علاقاته مع شارلمان.

٠٤.

الهـادي

مُوسى بن محمد

١٦٩ - ١٧٠ هـ

ولد موسى الهادي بالسيروان من الري عام ١٤٧ أيام خلافة جده المنصور، وأمه أم ولد بربرية هي الخيزران. ونشأ في بيت الخلافة. كان طويلاً جسيماً جميلاً، أبيض مشرباً بالحمرة، في شفته العليا تقلص. ومع ذلك كان فصيحاً، أديباً، قادراً على الكلام. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً، من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما له من المهابة والرياسة. وكان يقول: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك. وغضب يوماً على رجل فاسترضى عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤونة الاعتذار. وعزى رجلاً في ولده فقال له: سرك وهو عدو وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

بدأ في عصره صخب الجند، وكثر السلاح. ومشت الرجال بين يديه بالسيوف، والقسيّ، وقلده عماله في ذلك.

بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وكان يجرجان يحارب أهل طبرستان، وتوفي أبوه في ماسبذان في شهر محرم، وهو قادم إليه، ومعه ابنه الرشيد، وحاجبه الربيع بن يونس مولى أبي جعفر المنصور، ويحيى بن خالد البرمكي. فوارى الرشيد أباه في التراب، وعاد إلى بغداد، ورجع موسى الهادي إلى مقر ملكه فوصل إليه في شهر صفر أي بعد وفاة المهدي بشهر تقريباً فأخذ البيعة، وجلس للأمر.

تتبع الزنادقة وأعمل فيهم السيف مثل والده وحسب وصيته إذ قال له: وقد

أمر يضرب عنق زنديق، يا بني، إذا صار لك هذا الأمر فتجرّد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب مانى ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحوّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين، أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاتصال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين[1].

واستعمل على الحجابة بعد الفضل بن يونس ابنه الفضل واستوزره.

وعمل على خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه جعفر، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، ووافقه عدد من الأمراء والقادة على ذلك، وخالفته أمها الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها الرشيد أكثر من موسى، وألحّ على أخيه في ذلك، وبعث إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد، فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يحيى: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فأطرق مليّاً ـ وكان ذلك ليلاً ـ فأمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء إليه يوماً أخوه هارون الرشيد فجلس من بيته بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه مليّاً، ثم قال: يا هارون! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: أي والله، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأصلنّ من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال:

(١) تاريخ الطبري.

ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده، فحلف الهادي ليجلس معه على السرير، فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد[1].

استحوذت الخيزران على ابنها موسى في أول عهده، كما استحوذت على أبيه من قبل، وبدأت الأمراء تقف على بابها، لكن الهادي لم يلبث أن منعها من التصرف في شيء من المملكة، وحلف لئن وصل أمير إلى بابها ليقطع عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام في الشؤون، وحلفت ألا تكلم ابنها أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

ومات الهادي في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠، واختلف في موته، أكان سمّاً، أم بسبب قرحة أصابته في جوفه. وقد حكم مدة ستة واحدة وثلاثة أشهر. وخلف سبعة أولاد من الذكور، أكبرهم جعفر الذي كان يرشحه للخلافة، وابنتين اثنتين إحداهما أم عيسى التي تزوجها المأمون ابن أخيه الرشيد. وكان يكنّى بأبي محمد.

(١) البداية والنهاية.

الحركات

لم تطل أيام الهادي، ولم تحدث في هذه المدة القصيرة أحداث واسعة سوى خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان سبب خروجه أن الهادي عندما عزل عن المدينة اسحاق بن عيسى ولى عليها عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فطلب الحسن بن محمد ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بتهمة فاختفى، وكان قد كفله الحسين بن علي بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن فدعاهما الوالي وأغلظ إليهما، ثم أعادها ثانية فأجابت الحسين إلى الخروج لما نيل منه، وكان أن خرج الوالي إلى بغداد، فلبس الحسين البياض وجلس في المسجد النبوي والتف حوله جماعة فبايعوه للرضا من أهل البيت، واقتتلوا مع أنصار العباسيين عدة مرات، ثم خرج مع جماعته إلى مكة المكرمة فأقاموا بها إلى موسم الحج، فبعث إليهم الهادي جيشاً فاقتتلوا بعد فراغ الناس من الموسم في وادي فخ فقتل الحسين بن علي وجماعة من أنصاره... وأفلت من هذه المعركة ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واتجه إلى مصر، ومنها انطلق إلى المغرب. وكانت مدة خروج الحسين بن علي تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقضى على ثورة دحية الحراني في صعيد والتي قامت منذ أيام والده إذ ارسل والياً إلى مصر الفضل بن صالح بن علي فهزم دحية، وتمكن منه، وقتله، والفضل هذا هو الذي بنى مدينة العسكر قرب الفسطاط وقد اتسعت واتصلت بالفسطاط.

-٥-

الرشيد

هارون بن محمد

١٧٠-١٩٣هـ

بلغت الدولة العباسية أوجها أيام الرشيد ، فأباؤه قد وطدوا له الأمر فعمّ الاستقرار ، ووصلت الدولة إلى غاية قوتها فساد الأمن ، ولم يحدث الصراع على الحكم إذ كانت الدولة في مرحلة الشباب حيث لا يزال الشعور بالمعاناة قائماً للوصول إلى السلطة وانتزاعها من أيدي الأمويين.

وكان الرشيد شجاعاً قوياً فقد قاد الحملات والصوائف في عهد أبيه ولم يتجاوز العشرين من العمر ، وسار على رأس الجيوش إلى بلاد الروم ، وهو أمير المؤمنين ، فحطّاً الروم رؤوسهم وأحنوا هاماتهم له ، ورهبوه ، وأخافوا رعاياهم به.

وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها ، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً ، ويكثر من الحج ، فقد ولي أمر المسلمين ثلاثاً وعشرين سنة حجّ في خلافتها تسع مرات وهي مواسم : ١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨١ - ١٨٦ - ١٨٨ ، حتى شاع بين الناس أنه يغزو عاماً ، ويحجّ عاماً. ويتصدّق من صلب ماله ، وقد تتبع الزنادقة وقتل منهم أعداداً.

وكان يستمع إلى الوعّاظ والناصحين ، ويبكي من خشية الله. فقد مرّ وهو في طريقه إلى الحج بأحد البهاليل فقال له : قل يا بهلول ، فقال :

هب أن قد ملكت الأرض طرّاً ودان لك العباد فكان ماذا

أيس فرداً مصيرك خوف قبر ... ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أحدث يا بهلول أمغيره؟ قال نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في حاله، ووآسى في ماله، كتب في ديوان الله من الأبرار. فظنّ أنه يريد شيئاً، فقال: إنّا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يُقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنّا أمرنا أن يُجري عليك رزق نفقات به. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر علي رزقاً، إنصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خُذها. فقال: اردُدها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال[1]: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[2].

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم، وتزلّ القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُقبل، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة -: يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلّهم، وقد قال تعالى ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق. وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال:

(١) الراوي: وهو الفضل بن الربيع.
(٢) البداية والنهاية: أخبار الخلفاء.

عش ما بدا لك سالماً ... في ظلّ شاهقة القصور
تمشي إليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح إلى البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلاّ في غرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين لسرّه فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى. ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمنّعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأنّ سهام الموت صائبة ... لكلّ مُدرّع منها ومُترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

فخرّ الرشيد مغشياً عليه[1].

ولد الرشيد بالري أيام خلافة جده أبي جعفر المنصور عام ١٤٦، وبويع بالخلافة عام ١٧٠، ولم يكن عمره ليزيد يوم بويع على أربع وعشرين سنة، وكان أبيض طويلاً، سميناً جميلاً، وتوفي بطوس في ٣ جمادى الآخرة من عام ١٩٣ فتكون ولايته ثلاثاً وعشرين سنة.

وتزوج بنت عمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأنجبت له ولده الأمين في ١٦ شوال من عام ١٧٠، وكان زواجه من زبيدة عام ١٦٥. كما تزوج عام ١٨٧ العباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور، كما تزوج عدة نساء أخريات، وتوفي عن أربع منهن. وكانت له عدة جوارٍ أنجبن عدة أولاد منهم: المأمون، وهو أكبر أولاده، إذ ولد يوم بويع الرشيد بالخلافة أي ١٥ ربيع الأول، وبذا يكون أكبر من الأمين بستة أشهر، وتسمى أم المأمون

(١) المصدر السابق.

مراجل، والمعتصم، وتدعى أمه ماردة، والقاسم المؤتمن وتسمى أمه قصل.

وكان الرشيد يكنى أبا موسى، ثم عرف باسم أبي جعفر.

ولما بويع بالخلافة في ١٥ ربيع الأول أخرج يحيى بن خالد البرمكي من السجن وولاه الوزارة، إذ كان الهادي قد سجنه قبله للرشيد، وأكمل الخليفة الجديد بناء مدينة طرسوس، وهي الثغر على ساحل البحر المتوسط، وانتهى العمل فيها في العام الأول من خلافة الرشيد.

وتوفيت الخيزران والدة الرشيد عام ١٧٣. وبايع لابنه محمد الأمين ولياً للعهد عام ١٧٥، ولم يتجاوز الأمين الخامسة من عمره، وهذا ما ولّد نقداً للرشيد من أهل العلم والعامة على حدٍ سواء، ومع أنّ ابنه عبد الله المأمون أكبر من الأمين بستة أشهر إلا أنّ البيعة كانت للأمين إذ أن أمه زبيدة بنت جعفر ابنة عم الرشيد، وذات الحظوة الكبيرة عنده، على حين كانت أم المأمون أم ولد، هي مراجل، لكنه لم يلبث أن بايع بعد سبع سنوات للمأمون بعد أخيه الأمين.

وكان لآل برمك نفوذ كبير في الدولة أيام الرشيد، إذ كان يحيى بن خالد مربياً للرشيد، حتى كان ينادي أبي، وكان أولاد يحيى وهم: الفضل، وجعفر، وموسى، ومحمد أترابه وأقرانه، وكان الهادي يحقد عليهم، وقد سجن والدهم، فلما بويع الرشيد أخرجه من السجن، وقربه، وأعطاه الوزارة، وزاد نفوذ هذه الأسرة كثيراً، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه فقد قادوا الجيوش، وأخضعوا الثورات، وأخمدوا الفتن، فقد ندب الفضل بن يحيى القتال يحيى بن عبد الله بن الحسن عندما ثار في بلاد الديلم عام ١٧٦، كما سار الفضل نفسه على رأس قوة إلى بلاد الترك فدخل كابُل، وغزا بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي خدم فيه البرامكة

الدولة كانوا يخدمون أنفسهم، إذ كانوا أصحاب النفوذ والسلطان، وأهل المشورة والرأي، والمقدمين في كل أمر، وجلساء الخليفة وندماءه، يدخلون عليه في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدله بآخر غير أن مركزهم لم يكن ليتغير، فقد عزل جعفر عن مصر عام ١٧٦، وعزل محمد بن خالد عن الحجابة وأعطاها للفضل بن الربيع عام ١٧٩.

تغيرت أحوال البرامكة إذ تبدّل لهم الرشيد فجأة فقتل جعفر بن يحيى، وسجن يحيى وابنه الفضل، وصادر أملاكهم وأموالهم. ولربما كان لما حلّ بالبرامكة أسباب عامة نتيجة زيادة نفوذهم حتى خافهم الرشيد، ومغالاتهم بالتبذير والمصروفات حتى فاقوا الخليفة نفسه وسبقوه، وعدم احترامهم بالخليفة حيث أصبحوا يدخلون عليه من غير إذن، وهذا ما جعل العامة والخاصة تحقد عليهم، وتتناولهم بالنقد بل وتتناول الرشيد نفسه الذي فسح لهم المجال، فخاف الرشيد على ملكه من نفوذهم، ومن نقمة العامة عليه، وجاء موضوع جعفر الخاص فاتخذه السبب في قتله وإنزال النكبة بأهله. فقد ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلّم رد عليه ردّاً ضعيفاً: فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالنا نُدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء قد خصني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري، حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا ـ قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ـ وحياه في الأرض، ما

يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يستح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذكر عن أحمد بن يوسف أن لمامة بن أشرس قال: أول ما أنكر يحيى من خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى بن خالد أمور عبادك! أتراك تحتج بحجة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع [1].

قال: وحدثني محمد بن الفضل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وباخرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً [2].

وأما السبب الذي اتخذه الرشيد ذريعة للبطش بالبرامكة فهو فيما يتعلق بجعفر بن يحيى الذي قرّبه الرشيد إليه كثيراً حتى أصبح سميره الذي لا يكاد يفارقه بل لا يكاد يستطيع مفارقته وأمين سرّه الذي لا يستطيع أن يكتم عنه سراً. فعندما ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن عام ١٧٦ في بلاد الديلم، ووجّه إليه الرشيد الفضل بن يحيى فأمّنه، وجاء يحيى إلى بغداد فدفعه الرشيد الى جعفر بن يحيى البرمكي فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري، ولا تتعرّض أن يكون

(١) تاريخ الطبري.
(٢) المصدر نفسه.

خصمك فداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فوجّه معه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقاً، وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعلم بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري، فانكسر الفضل، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويعاوده، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحياتك يا أمير المؤمنين في الحبس الضيّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر - وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان بنفسي. فلما خرج أتبعه ببصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان[1]. ويبدو أن هذا كان سبباً رئيسياً لقتله والنكبة بالبرامكة، لكن هناك أمر آخر يبدو أنه أكثر أهمية، وهو أن الرشيد لم يكن يصبر على بعد جعفر بن يحيى إذ كان يحبه جداً، ويجب أن يكون دائماً بجانبه، وفي الوقت نفسه كان يحب أخته العباسة بنت المهدي حيث كانت على شيء من الأدب والرأي والحكمة فكان لذلك يحب أن يحضرا مجلسه، ولما كان جعفر لا يحق له أن يرى العباسة أخت الرشيد إذ أنه أجنبي عليها لذا قال له الرشيد: أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا حضرت مجلسي على ألا تمسّها، ولا يكون منك شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوّجها منه على ذلك. فكانا يحضران مجلس الرشيد، غير أن هذا الشرط لا يكون، وما كان، فهما شابان وجرت خلوات بينهما، وأيّ منهما قد مكر

(١) تاريخ الطبري.

بالأخر لا ندري، فالأمر واحد، وحملت العباسة من جعفر، وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من أخيها كما خاف جعفر إن علم الرشيد بذلك لذا فقد وجهت المولود مع جواضن له من عماليكها إلى مكة، وبقي الأمر مستوراً عن الرشيد حيناً من الزمن، حتى وقع خلاف بين العباسة وبين بعض جواريها، فأعلمت الجارية الرشيد بخبر العباسة وولدها، فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ تتبع أمر الوليد في مكة فاستيقن الخبر فأخذته النخوة في رأسه فأخذها، وعلم أن جعفر قد خانه، وقرّر قتله والانتقام منه ومن أهله، وإن كان هو نفسه السبب في ذلك لما فرّط في أهله. فلما رجع الرشيد من الحج أرسل مسروراً الخادم مع جماعة إلى جعفر فأخرجوه من منزله كرهاً وقيدوه، وأتوا به إلى منزل الرشيد فأمر بضرب عنقه، وكان ذلك في أواخر أيام شهر محرم من عام ١٨٧. كما أمر الرشيد بسجن يحيى بن خالد، وأولاده الفضل، ومحمد، وموسى وأولادهم، وأعلن أن لا أمان للبرامكة باستثناء محمد بن خالد إذ كان للخليفة ناصحاً، وصادر أموالهم وأملاكهم، ثم أخرج يحيى من السجن لكبر سنه، كما أخرج أبناء أولاده لصغرهم. ومات الفضل بن يحيى في السجن عام ١٩٢، كما مات أبوه يحيى من قبل عام ١٩٠.

وبايع لابنه القاسم ولياً للعهد بعد الأمين والمأمون، وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، أما الأمين فقد كان والي الشام والعراق، وأما المأمون فولي أمر المشرق من همذان إلى آخر المشرق.

وقد أشيعت الشائعات حول الرشيد، ووُجّهت التهم بصلته كان أعظم خلفاء بني العباس، وإنما توجه التهم إلى العظماء فإذا عظموا كان الصغار أتزاماً، وأشاعوا الكثير عن غزوه، وندمائه وكلّفه، ووصلوا إلى زوجه زبيدة، وعرضه، وإنلافه في ماله، وإعراضه عن ملكه.

الحركات

لم تقم حركات واسعة أيام الرشيد، وإنما كانت حركات محلية يقوم بها والٍ أغراه سلطانه، وأطمعه نفوذه فيخرج على الخليفة ثم لم يلبث أن يهزم فيُقتل أو يُعفى عنه.

ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم عام ١٧٦، وكان محمد نجا من معركة (فخّ) عام ١٦٩، فدعا لنفسه فبايعه أناس من أهل الحرمين، واليمن، ومصر، وذهب إلى اليمن فأقام مدةً فيها، ودخل مصر والمغرب وعاد إلى المشرق فدخل العراق مُتنكراً، وقصد الري وخراسان، ووصل إلى بلاد ما وراء النهر، واشتد الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك، ومعه من شيعته وأنصاره نحو مائة وسبعون رجلاً، فأقام سنتين وستة أشهر. وخرج إلى طبرستان فبلاد الديلم. وأعلن هناك نفسه، وكثّر أتباعه، فندب الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألفاً، ومعه كبار القادة. وضعف أمر يحيى إذ خاف أن يغدر به ملك الديلم، لأن الفضل البرمكي قد كاتب يحيى ورفق به واستماله، وناشده، وحذّره، وأشار عليه، وبسط أمله. كما كاتب صاحب الديلم وجعل له مليون درهم إن حمل يحيى على الصلح وطلب الأمان. وفعلاً أجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده يبعث به إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرّه ذلك، وكتب أماناً إلى يحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة

بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن علي، والعباس بن محمد، ومحمد بن ابراهيم، وموسى بن عيسى و..... كما وجه مع كتاب الأمان هدايا. فلما وصل هذا إلى الفضل البرمكي أرسلها إلى يحيى بن عبد الله. قبل يحيى بن عبد الله هذا فأقبل إلى الفضل فسار به إلى بغداد، فلقيه الرشيد، ورحب به، ومنح مالاً كثيراً، وأجرى عليه أرزاقاً، وأنزله منزلاً طيباً بعد أن أقام عدة أيام في بيت يحيى بن خالد البرمكي. وكان يتولى أمره بنفسه، وأمر الناس أن يسلموا عليه. ثم بلغ الرشيد أن تنكر ليحيى فسجنه عند جعفر بن يحيى البرمكي، فرق عليه جعفر وأطلقه، وأرسل الرشيد من أعاده إلى السجن في سرداب وكيله، ووكل به مسرور الخادم، ولم يزل في سجنه حتى مات عام ١٨٠، وكثرت الروايات عن أسباب موته، فمنهم من قال: جوعاً وعطشاً، ومنهم من قال: عذاباً، ومنهم من قال: انتهى أجله.

وثارت فرقة من قيس وقضاعة في مصر، فقاتلها عامل مصر يومذاك وهو اسحاق بن سليمان، وأمده الرشيد بفرقة من أهبن عامل فلسطين فخمدت الفتنة وذلك عام ١٧٧ هـ.

وثار أهل إفريقية عام ١٧٨ بإمرة عبدويه الأبياري، فقتل الفضل بن روح بن حاتم، وأخرج من كان بها من آل المهلب، فوجه إليهم الرشيد هرثمة بن أعين فخمدت الفتنة، بعد أن كاتب يحيى بن خالد البرمكي عبدويه رأس الحركة ودعاه إلى الطاعة وأمنه وأمله حتى وافق وطلب الأمان، وعاد إلى الطاعة، وقدم إلى بغداد، فولى له يحيى، وأحسن إليه، ووصله، وولاه.

وثار بلدة (نسا) من خراسان عام ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، وكثر أتباعه، ولكنه تاب فطلب الأمان من والي خراسان علي بن عيسى فأعطاه إياه عام ١٨٤، ثم عاد فخرج ثانية، وغلب على (نسا) و(أبيورد) و(طوس) و(نيسابور)، وزحف إلى (مرو) فهزم هناك، فمضى

عنه (سرخس)، وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان فانتصر عليه عام ١٨٦ وانتهى أمره.

وثارت العصبية في الشام فكانت فتنة عمياء بين المضرية واليمانية فأرسل لهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من بلاد ما وراء النهر لسبب ناقه، وهو الزواج من امرأة بحيلة فلما رفع الأمر إلى الرشيد، أمر واليه علي بن عيسى على خراسان أن يفرق بينهما، وأن يجلد رافعاً، ويجرّه بالطواف به في أسواق سمرقند ليكون عبرة لغيره، وسُجن رافع، فهرب من السجن، ولحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه علي إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠، وعظم أمر رافع عام ١٩١، وأطاعه أهل (نسف)، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن علي. وولى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل علي بن عيسى عنها. وقاتل هرثمة رافع، ولكن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع وأرسله إلى الرشيد وهو في (طوس) متوجه لقتال رافع فضرب عنق بشير. واستمر أمر رافع إلى ما بعد أيام الرشيد. أما الرشيد فقد توفي وهو في طوس عام ١٩٣.

وفي عام ١٨١ تغلب الزنادقة على جرجان وعاثوا فيها الفساد.

وخرجت الخرّمية في آذربيجان عام ١٩٢ فأرسل إليهم الرشيد عبد الله بن مالك بن هيثم الخزاعي فقتل منهم كثيراً، وأسر وسبى، فأمره الرشيد بقتل الأسارى، وبيع السبي، ففعل.

وثار رجل من بني عبد القيس فأرسل له الرشيد من قتله وذلك عام ١٩٠.

الخوارج

نشط الخوارج أيام الرشيد إلا أن حركاتهم كانت موضعية وذات أثر ضئيل محدود، مع العلم أن إفريقية كان فيها إمارتان للخوارج إحداهما الصفرية، والأخرى الإباضية.

خرج الفضل بن سعيد الحروري عام ١٧٠ ولكنه لم يلبث أن قُتل.

وخرج عام ١٧٨ بالجزيرة الوليد بن طريف الشاري، وقتل كثيراً من أهلها، ومنهم ابراهيم بن خازم بن خزيمة الذي قُتل بناحية نصيبين، ثم توجه الوليد إلى أرمينيا. ورجع إلى الجزيرة في العام التالي وقويت شوكته، وكثُر أتباعه، فبعث له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فالتقى به بالقرب من عين فضله، وقد رثته أخته الفارعة بالقصيدة المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مُورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يعب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان شكراً لله على نصره على الوليد بن طريف، وانصرف بعد أداء العمرة إلى المدينة حيث بقي فيها إلى موسم الحج، فسار إلى مكة، وحج بالناس، وأدى المناسك كلها ماشياً.

كما خرج في العام نفسه (١٧٩) في خراسان حمزة بن أترك السجستاني، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر حتى قوي أمره عام ١٨٥ فعاث فساداً في

باذغيس من أرض خراسان، ثم غُلب، وفرّ باتجاه كابُل.

وخرج في الجزيرة أيضاً عام ١٨٠ خراشة الشيباني، فسار إليه مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي فقتله، وتتبع أعوانه من الخوارج.

وفي عام ١٨٤ خرج بالجزيرة أيضاً أبو عمرو الشاري، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى قُتل.

وفي عام ١٩١ خرج رجل بسواد العراق يقال ثروان بن سيف، فوجّه إليه الرشيد طوق بن مالك، فتمكّن طوق من الانتصار عليه وقتل عامة أصحابه، وجرح ثروان، فظنه أنه قد قُتل، وفرّ ثروان جريحاً.

حروب الروم

كان الغزو في بلاد الروم لا ينقطع، وتكاد تكون أيام الصيف كلها حروباً، أما أيام الشتاء فقلما تحدث فيها الحروب لأن البرد شديد في بلاد الروم وخاصة أن الثغور يقع معظمها في أعالي جبال طوروس حيث تتغطى بالثلج أغلب فصل الشتاء والربيع.

سار على رأس الصائفة عام ١٧١ سليمان بن عبد الله البكاء، وقادها عام ١٧٢ إسحاق بن سليمان بن علي. واتجه الرشيد بنفسه إلى بلاد الروم عام ١٨١ وافتتح حصناً يقال له: الصفصاف. كما غزا في العام نفسه بلاد الروم عبد الملك بن صالح ووصل إلى انقره. وفي العام التالي ١٨٢ سار على رأس الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فوصل إلى بلدة أصحاب الكهف. وفي هذا العام سمت الروم التي ملكهم قسطنطين بن ليون، وخلعوه، وأقروا أمه (ريني) على الحكم، وتلقب (أغسطه).

وفي عام ١٨٣ خرجت الخزر من ثلمة أرمينيا على الناس فسبوا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وقيل: إن عدد السبي قد زاد على مائة ألف، فأرسل الرشيد إلى تلك الجهات خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد فأصلحوا ما أفسدت الخزر، وطردوهم من تلك الديار.

وفي عام ١٨٧ نقضت الروم العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، والذي

عقده الرشيد مع الملكة (ريني)، إذ أن الروم قد خلعوها، وسملوا عينيها، وولوا عليهم (نقفور)، ويقال: إنه من سلالة آل جفنة إذ من المعلوم أن جبلة بن الأيهم الغساني قد فرّ إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام وبقيت أسرته هناك على النصرانية. وسار القاسم بن الرشيد على رأس الصائفة فحاصر الجيش الرومي حتى افتدوا أنفسهم بعددٍ كبيرٍ من أسرى المسلمين الذين كانوا بيد الروم بطلقونهم على أن يرجع عنهم. وبعد مدة كتب (نقفور) إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إليّ ما حملته إليك من الأموال والفتد نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه، ثم استدعى بدواةٍ وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام. ثم نهض من فوره وسار حتى نزل بساحة هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور من الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء.

وفي العام التالي (١٨٨) خرج على رأس الصائفة ابراهيم بن صالح فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج نقفور للقائه، فانهزم نقفور، وجرح ثلاث جراح، وقتل من جيشه أربعون ألفاً.

وفي عام ١٨٩ رابط القاسم بن الرشيد في مسرح دابق. وفادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى لم يبق أسير واحد.

وفي عام ١٩٠ خرج الرشيد لغزو الروم، فخرج إليه نقفور بالطاعة، ودفع الجزية عنه وعن ابنه، وكان مقدار الجزية خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وطلب نقفور من الرشيد جارية أسرها المسلمون، وهي ابنة ملك هرقلة، فاشترط الرشيد عليه ألا يُعمّر هرقلة، وأن يدفع ثلاثمائة ألف دينار سنوياً. ورجع الرشيد، واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى من أهلها كثيراً، وقتل كثيراً.

وفي عام ١٩١ غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد المهيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه، على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولّى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً. وخرج الرشيد إلى ثغر (الحدث) ليكون قريباً من الغزو. وأمر الرشيد بهدم الكنائس والأديرة، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلدان. ثم سار الرشيد في بلاد الروم فدخل مدينة هرقلة في شوال فحرّبها، وسبى أهلها، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة، والكنيسة السوداء.

وولّى الرشيد على سواحل بلاد الشام ومصر حميد بن معيوف فدخل قبرص، فسبى أهلها، وباعهم.

وفي عام ١٩٢ وَلّى الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك فدخل بلاد الروم، وفتح بلدة مطمورة، ثم جرى صلح بين المسلمين والروم.

الإمارات

بدأت الإمارات المستقلة عن جسم الدولة الإسلامية تظهر، وإن كانت تعود في نشأتها إلى وقت مبكر. أكثر من هذا إذ ظهرت منذ قيام الدولة العباسية وبالتحديد عام ١٤٠ بالنسبة إلى دول الخوارج، وقبل ذلك بالنسبة إلى الأندلس غير أن العباسيين كانوا يحاولون القضاء على هذه الإمارات أو الدول، لذلك كانت تُعدّ حركاتٍ قائمةً في هذه المناطق، ولكن بعد ذاك تركتها الدولة العباسية وشأنها، وأصبحت إماراتٍ منفصلةً بل أعلنت الأندلس الخلافة فيما بعد، وغدت خلافتان في أرض الإسلام، وفي هذا مخالفة شرعية إذ لا يصحّ وجود سوى خليفةٍ واحدٍ. قال عرفجة بن شريح: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ واحدٍ يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه»[1].

١ ـ الدولة الرستمية في تاهرت

وتوفي مؤسسها عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١ أي في أوائل عهد هارون الرشيد. وخلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن، واستمر حكمه إلى ما بعد أيام الرشيد، وقد عادن والي إفريقية من قبل الرشيد، وهو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة والذي جاء إلى إفريقية بعد وفاة أخيه يزيد في

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٥٢ باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع.

نهاية عام ١٧٠ وتولى أمرها بعد ابن أخيه داود بن يزيد ، ولكن روح قد مات عام ١٧٤ ، ثم جاء ابنه الفضل بن روح غير أن ثورة قامت في إفريقية وقضت على الفضل فتولى أمر القيروان بعد ذلك هرثمة بن أعين ، وقد أخرجت الثورة في إفريقية آل المهلب من المنطقة ، وعادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ولاة القيروان العباسيين سواء هؤلاء أم الذين جاءوا من بعد وهم الأغالبة الذين تولوا أمر القيروان منذ عام ١٨٤ .

ولقي عبد الوهاب بن عبد الرحمن حركات ضده بسبب مخالفته المذهب الأباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي ، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد . أما عبد الوهاب فقد تسلّم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علماً لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنكّار ، أي الذين ينكرون تصرّف ولي الأمر بالحكم ، وجرى قتال بين الطرفين كان في صالح ابن فندين فدعا عبد الوهاب إلى الهدنة لأخذ رأي أهل العلم الذين منهم من أفتى لصالح هذا ، ومنهم من أفتى لصالح ذلك ، وتجدّد القتال ، وانتصر عبد الوهاب وقُتل ابن فندين ، ولاذ جماعته بالفرار ، منهم من خرج بعيداً عن المنطقة ، ومنهم من اعتصم في معقلهم التي عرفت باسم « كدية النكّار » ، واستمر الخلاف طيلة أيام عهد الرشيد ، وإن كان من غير المستبعد أن يكون أمراء القيروان يشجعون الحركات ضد الرستميين .

٢ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة

وتولى أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة عام ١٦٨ ، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم « أبو الوزير » ، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤ ، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم ، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨ ، وقد عرف باسم « أبو المنصور » ، وقد ثارت الأباضية في أيامه في وادي (درعه) ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم .

وكما هادن الأباضيون ولاة العباسيين في القيروان ، كذلك عاداهم الصفرية الذين انهمكوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجاراً بين الشمال والجنوب عبر الصحراء . وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثياً كالأباضيين

٣ ـ الأمويون في الأندلس .

حكم عبد الرحمن الداخل الأندلس ١٣٨ ـ ١٧٢ أي أنه عاصر الرشيد مدة عامين ، وعندما تولى تولى بعده ابنه هشام الرضا . وقد حكم الأندلس مدة ثمانية أعوام ١٧٢ ـ ١٨٠ ، ووقع خلاف بينه وبين أخيه سليمان الذي هو أكبر منه ، وقد أخذ سليمان البيعة لنفسه في طليطلة ، ولكنه هزم أمام هشام عام ١٧٤ ، ولجأ إلى المغرب . وبعد أن وطّد هشام حكمه اتجه إلى قتال النصارى في الشمال فأرسل إليهم حملات ، كما أرسل جيوشاً إلى سبتمانيا في جنوب فرنسا .

وخلفه ابنه الحكم الربضي ، واستمر حكمه حتى عام ٢٠٦ ، ونازعه على الحكم عماه سليمان وعبد الله ، أما سليمان فقد كان في طنجة وفر إلى الأندلس بقوة من المرتزقة ولكنه هزم وقتل عام ١٨٤ ، وأما عمه الآخر عبد الله فقد كان عند الخوارج الأباضيين في تاهرت بالمغرب الأوسط فانتقل إلى الأندلس غير أنه هزم ، وعفا عنه ابن أخيه الحكم ، وأخيره على الإقامة في بلنسية ، ويدفع له مرتباً سنوياً صخماً . كما قامت ضده عدة حركات أولاها في طليطلة قضى عليها بالحيلة إذ ولّى عليها عمروس بن يوسف الذي تظاهر بكره الأمير (الحكم) ودعا كبار أهل البلدة إلى وليمة بالقلعة وتخلص منهم عام ١٨١ . وكانت الحركة الثانية بالعاصمة قرطبة إذ حاصر قصر الحكم أهل حي الربض خلاف بسيط مع جندي فأرسل سراً من أشعل النار في الربض ، فاضطر المحاصرون أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق . وعندما انتهت الحركة أمر الأمير (الحكم) أن يهدم حي الربض ، وأن يُحرث ، ويُزرع مكانه ، واضطر عدد من أهله إلى مغادرة الأندلس ، فاتجه

بعضهم إلى المغرب واستقروا عند الأدارسة هناك، وبين البربر. ووصل بعضهم الآخر عن طريق البحر إلى الاسكندرية ونزلوا فيها.

٤ ـ الأدارسة في المغرب

فرّ ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز وقد نجا من معركة فخّ عام ١٦٩، والتجه نحو مصر، ومنها إلى المغرب حيث استطاع أن يؤسس بمساعدة السكان دولة الأدارسة عام ١٧٢، وهي منفصلة عن المشرق، وبنى في المكان المعروف باسم حواوة مدينة فاس، واتخذها عاصمة له، واستمر في حكمه حتى توفي عام ١٧٧ حيث مات مسموماً فخلفه ابنه ادريس الثاني الذي كان جنيناً في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشؤون البربر عوض أبيه، وهو راشد، فلما قتل راشد، كفل ادريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨ وبنى مدينة العالية في المكان المعروف بمدار الفيطون، وهي مقابل مدينة فاس، يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو واقد من وواقد نهر (سبو). وقد سكن في هاتين المدينتين الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة الربض عام ١٨١ هـ، واستمر في الحكم حتى عام ٢١٣ حيث توفي بفاس.

٥ ـ الأغالبة

أرسل أبو جعفر المنصور عام ١٤٨ إلى إفريقية الأغلب بن سالم التميمي[1] وعهد إليه بولايتها، فوصل إلى القيروان ودخلها، وتمكّن من دحر الحسن بن حرب الكندي والاستيلاء على القيروان وتخليصها منه، إلا أن الحسن بن حرب قد عاد إلى تونس وجهز حملة ثانية استطاعت أن تقتل الأغلب. وكان للأغلب ولد عمره عشر سنوات حين قتل هو وهو ابراهيم بن الأغلب الذي سيلعب

(١) كان الأغلب بن سالم من دعاة العباسيين مع مسلم، وشارك أبو جعفر المنصور في حصار =

دوراً كبيراً في إفريقية، والذي يعد المؤسس لدولة الأغالبة.

رحل إبراهيم بعد مقتل أبيه إلى مصر، ودرس الفقه فيها، ثم رحل إلى المغرب، وأقام في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط.

جاء والياً على إفريقية عمرو بن حفص المهلبي عام ١٥١ فاشتدت عليه الثورات حتى قتل، واستطاع خلفه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أن يقمع حركات الخوارج حتى عام ١٧٠ حيث توفي، وجاء بعده ابنه داود بن يزيد، ثم أخوه روح بن حاتم، فالفضل بن روح. وفي ١٧٨ ثار عبدويه الأنباري وقتل الفضل بن روح بن حاتم المهلبي، وأخرج آل المهلب من إفريقية.

استطاع العلاء بن سعيد والي الزاب أن يسير إلى القيروان، وأن يستردها، وأن يسلّمها إلى هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد والياً على إفريقية عام ١٧٩، وكان ابراهيم بن الأغلب مع العلاء، وتقرّب ابراهيم بن الأغلب إلى هرثمة فولاه الزاب.

أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة وهو محمد بن مقاتل العكي والياً على إفريقية فثار الشعب والجند ضده، كما ثار عليه واليه على تونس همام بن نجم التميمي عام ١٨٣، وقد ساعد ابراهيم بن الأغلب العكي في مقاتلة همام بن نجم، ومكّن له. فعزل الرشيد أخاه محمد بن مقاتل العكي ووفى مكانه ابراهيم بن الأغلب على إفريقية عام ١٨٤، وبدأ ابراهيم منذ توليه الإمارة يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة ابراهيم بن الأغلب ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل

= يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط أثناء الاضطراب بين العباسيين والأمويين، كما شارك أبا مسلم الخراساني في القضاء على حركة عبد الله بن علي عم المنصور. ثم أرسله المنصور مع هاشم بن الأشعث إلى إفريقية، وقد أصبح والياً عليها بعدها

ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين وخاصة أن الرشيد كان مشغولاً بحروب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجواء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج، وأدارسة، وأمويين. ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب ورأى في ذلك خيراً وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائياً كباقي الإمارات.

ثار على ابراهيم بن الأغلب في المغرب الأدنى حديس الكندي ولكنه هزم أمام ابن الأغلب. وثار أهل طرابلس عام ١٨٩ على سفيان بن المهاجر عامل ابراهيم على مدينتهم، ولكن ابن الأغلب تمكّن من إخضاعهم، وهكذا قامت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى.

٦ - الأمين
محمد بن هارون
١٩٣-١٩٨ هـ

ولد الأمين بالرصافة في شهر شوال من عام ١٧٠ فهو أصغر من أخيه المأمون بحوالي ستة أشهر، وبويع له بولاية العهد وهو ابن خمس سنين، وقد لقي الرشيد تعباً من هذه البيعة لفتى صغير، ولكن يبدو أن ضغطاً خضع له من زوجه زبيدة صاحبة الحظوة عنده، فهي ابنة عمه، وصاحبة دين وعقل، ومن العباسيين الذين يرون في هذا الغلام صلة لهم فهو عباسي من ناحية الأب والأم. وكانت السرعة في هذه البيعة خوفاً من نزول حادث مفاجيء بالرشيد، ومن منازعة أخيه الأكبر، فإن البيعة وهما صغيران تحلّ المشكلة. غير أن الرشيد لم يلبث عام ١٨٢ من أخذ البيعة لابنه المأمون ولياً لعهد أخيه الأمين، ثم اتبعها ببيعة ثالثة لابنه الآخر القاسم، وقد أطلق عليه لقب المؤتمن. وقد ولّى كلّ واحدٍ من أبنائه الثلاثة جهةً إذ ولّى المأمون المشرق، وأعطى الأمين المغرب الشامي والمصري، وولّى المؤتمن الجزيرة والثغور.

وعندما شبّ الأولاد يبدو أن الرشيد كان أميل لبيعة المأمون منه لبيعة الأمين وذلك لما رأى من جدية المأمون، وحزمه، وعزمه، وحكمته، على حين كان الأمين أميل للهو، وعدم المبالاة، والدعة. غير أن الرشيد يخضع لمؤثرات أخرى سواء في بيته أم في أسرته الذين كانوا أميل للأمين لأسباب أسرية أو بالأحرى عاطفية.

ويبدو أن الرشيد أراد أن يوثق بين أبنائه، ويؤكد ما بينهم ولكنه كان

في الوقت نفسه يزيد في البعد بينهم. فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ كان معه ولداه محمد الأمين، وعبد الله المأمون، وقواده، وقضاته، ووزراؤه. أما ابنه الثالث القاسم المؤيّد فقد أرسله إلى منبج ومن ضمّ إليه من القواد والجند. فلما قضى الرشيد مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أحضر الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله من أعمال، وصيّر إليه من الضياع والغلاّت والجواهر والأموال، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد، والشهادة فيه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده وورثاته وكتّابه وغيرهم.

وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدّم إلى الحجبة في حفظها، ومنع من أراد إخراجها والذهاب بها. فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميميّ وإبراهيم الحجبيّ، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقواد والفقهاء، وأدخلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهد عليها جماعة من حضر، ثم رأى أن يُعلّق الكتاب في الكعبة، فلما رُفع ليُعلق وقع، فقيل إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، طائعاً غير مكره. إن أمير المؤمنين ولّاني العهد من بعده، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، برضىً مني وتسليم، طائعاً غير مكره، وولّاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها[1] وبريدها، وبيوت أموالها، وصدقاتها وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعده،

(١) الطراز: ما نسج من ثياب السلطان.

وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضىً مني وطيب نفسي، أنّ لأخي عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة، أو جعل له من عُقدة[1] أو ضيعة من ضياعه، أو اتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دواب، أو قليل أو كثير، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، موفراً مسلماً إليه، وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها وعمن ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين حيث كان عبدالله ابن أمير المؤمنين بقرماسين[2] وأن يقضي عبدالله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والريّ والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب، من لدن الريّ إلى أقصى عمل خراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضمّ إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين. ولا يحوّل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاّه إياه هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الريّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها، ولا ينتخصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يولي عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحدٍ من عماله وولاة أموره بُندارياً[3]، ولا محاسباً ولا

(١) العقدة: الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً.
(٢) قرماسين: اسم بلد في خراسان.
(٣) البندار: كلمة فارسية تعني العامل في الشيء الذي يعني أمتعة السلطان.

داخلاً، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحدٍ من ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقوّاده وخدمه وموالیه وجنده، عما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا موالیهم، ولا أحد يسبيل منهم، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، ويرخيص له في ذلك وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله ومن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقوّاده وعماله وكتابه وخدمه وموالیه وجنده، ورفض اسمه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغر له وقماءٍ حتى ينفذ فيه رأيه وأمره.

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي همذان والكور التي سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين ممن قدم «قوماسين»، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجهٍ من الوجوه، أو بحيلةٍ من الحيل، صغرت أو كبرت، فلعبد الله ابن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين، والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له، والذبّ عنه، مما كانت الحياة في

أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا، أو حيث كانوا، أن يخالفه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله، وأنتم في حلّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين إن نقض شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدّمان عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدّم قبله، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدّم قبله، يحكم في ذلك بما أحب ورأى.

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليه، وأمر به، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين، ووكّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لتفين لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا، واشترط عليكم وألزمتم به على أنفسكم، فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئاً، أو غيّرتم، أو نكثتم، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فرئت منكم ذمة الله وذمة رسول محمد ﷺ

وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمس سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجلٍ منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسي حجة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بذلك، وكل مملوك لأحدٍ منكم - أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة - حرّ، وكل امرأةٍ له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، لا مثنوية[1] فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ، وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتب عبد الله ابن أمير المؤمنين بخطّ يده في الكعبة.

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، وصدق نيّةٍ فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين. إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون، وولاّني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيءٍ مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع والعقد والرباع أو ابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحدٍ من عمالي وكتابي بسبب عاملة، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحدٍ منهم أبداً، ولا يُدخل عليّ ولا على عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً، في نفسٍ ولا دمٍ ولا شعرٍ ولا بشرٍ ولا مالٍ، ولا صغيرٍ من الأمور ولا كبيرٍ، فأجابه إلى ذلك، وأقرّ به وكتب له كتاباً، أكّد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله، وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت

[1] لا مثنوية: لا استثناء.

له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشّه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن موازرته وجهاد عدوه في ناحيتي، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جندٍ، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النواحي، أو إلى عدوٍ من أعدائه، خالفه أو أراد نقض شيءٍ من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إليّا وولاّنا إياه، فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصّر في شيءٍ كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يولّي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي، فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقض من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله، ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلاّ أن يولّي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمة آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجلّ ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً، وكل امرأةٍ هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبته طلاق الحرج، وكل مملوكٍ هو لي

اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل البيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليها، وحضروا كتابها، أن يُعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطها وكتابها، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرىء عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولم شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك.

كما كتب الرشيد بذلك إلى عماله [1].

كان الأمين سبطاً أبيض، أقنى الأنف، صغير العينين، فصيحاً، يقول الشعر. وقد تأدب على الكسائي، وقرأ القرآن عليه، ولكنه كان يلهو بالصيد، ويكثر من إنفاق الأموال، واقتناء السودان. ويكنى بأبي عبد الله، كما كان يكنى بأبي موسى.

توفي الرشيد في الثالث من جمادى الآخرة في طوس، وهو في طريقه إلى

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثالث.

خراسان. وكان الرشيد قد أخذ البيعة لمن معه من الجند إلى المأمون على أن يكونوا معه. وكان الأمين ببغداد، أما المأمون فكان بمرو حاضرة خراسان ولما توفي الرشيد صلى عليه ابنه صالح. وكان أكبر ولده الذين معه، ثم كتب صالح إلى أخيه الأمين يعلمه بما حلّ، ويبايعه، ووصل الخبر إلى الأمين يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة، وكتم الخبر حتى اليوم التالي فنعى الرشيد للناس يوم الجمعة وأخذ منهم البيعة.

أما الجند الذين كانوا مع الرشيد بطوس فقد رجع بهم الفضل بن الربيع إلى بغداد.

وأما المأمون فقد استشار من معه من القادة، فأشار بعضهم بإجبار هؤلاء الجند الذين مع الفضل بن الربيع بالعودة إلى المأمون إذ أخذ الرشيد منهم البيعة له على أن يكونوا بجانبه. وأشار بعضهم الآخر بالاكتفاء بإرسال كتاب إليهم يأمرهم بالعودة ويسألهم الوفاء، ويحذرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين. ومع أن بعض الوجوه قد أوهموا المأمون أن بيعة الجند بطوس للرشيد كانت البيعة للمأمون بالخلافة، غير أن المأمون قد أرسل بالسمع والطاعة لأخيه الأمين. وإن الأمين قد أقرّ لأخويه بما تحت يديهما فللمأمون على خراسان وجميع أعمالها، وللمؤتمن على الجزيرة والثغور.

ثم إن الأمين قد عزل عام ١٩٤ أخاه المؤتمن عن الجزيرة والثغور، وولّى عليها مكانه خزيمة بن خازم. كما دعا لولده موسى على المنابر من بعده، ثم للمأمون والقاسم وذلك بوحي الفضل بن الربيع وتخطيطه إذ كان يخشى المأمون. فلما بلغ المأمون ذلك قطع البريد عن الأمين، وأسقط اسمه من الطرز.

وطلب رافع بن الليث الأمان من المأمون فأتته فجاء إليه فأكرمه وقدّمه، وانتهت أحداث سمرقند، فرجع هرثمة بن أعين الذي كان مكلفاً بحرب رافع فأكرمه المأمون وقرّبه، واجتمعت القادة عند المأمون فكره الأمين ذلك،

وأرسل رسلاً للمأمون إلاّ أنّ أحدهم وهو العباس بن موسى قد انحاز إلى جانب المأمون فرجع إلى بغداد فكان عين المأمون فيها وخاصة أنه من كبار أهل البيت ووجهاء القوم.

وألحّ الفضل بن الربيع على الأمين في أخذ البيعة لابنه موسى وقد سمّاه الناطق بالحق، فسار الأمين وراء الفضل وخلع أخاه، ومزّق الكتاب الذي أودعه أبوه في جوف الكعبة، وبدأ بدهر لولده.

وفي عام ١٩٥ عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان بالإمرة على الجيل وهمذان وأصبهان وقم، وأمره بحرب المأمون، وجهّز معه جيشاً كبيراً، وخرج مشيعاً له. ولكن هذا الجيش من الوصول إلى الري فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد المأمون في أربعة آلاف، فاقتتل الطرفان فقتل علي بن عيسى بن ماهان في المعركة وانهزم أصحابه، ووصل الخبر إلى الأمين في شوال فتأثر أشدّ التأثر، وجهّز جيشاً قوامه عشرين ألفاً بإمرة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، ووجهه إلى همذان ليقاتل طاهر بن الحسين، ولكنه هُزم فلجأ وجنوده إلى همذان حيث اعتصموا فيها فحاصرهم طاهر بن الحسين، فطلبوا منه الأمان فأمّنهم، وولّى عنهم، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا بأصحابه إذ داهموهم على حين غرّة وقتلوا منهم عدداً كبيراً، فنهض إليهم طاهر بأصحابه وقاتلهم، فقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في شهر ذي الحجة، وفرّ من نجا من القتل، ووصل الخبر إلى بغداد فخاف الناس وكثرت الأراجيف.

ووجه الأمين عام ١٩٦ أحمد بن يزيد في عشرين ألفاً، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في مثلهم أيضاً للقتال طاهر بن الحسين غير أن طاهر استعمل الحيلة، وأوقع بين الأميرين فعادا من غير قتال. وعندها أمر المأمون طاهر بن الحسين أن يسير إلى الأهواز ويأخذها، ويسلّم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ففعل.

أرسل الأمين إلى الشام عبد الملك بن صالح بن علي فسار إلى أهلها، ورغّب إليهم، وأمّله أن يجمع الجند لدعم الأمين، غير أن عبد الملك لم يلبث أن مات بالرقة فتولى أمر الجند الحسين بن علي بن ماهان فعاد بهم إلى بغداد، فدعاه الأمين ليلاً فرفض الحضور وفي الصباح اجتمع عليه الناس، فأرسل إليه الأمين من يحضره، فقاتلهم وهزمهم، وألبّ على الأمين، وأنكر عليه قوله، ودعا إلى بيعة المأمون، وأصبح الرجل القوي.

ضيّق الحسين بن علي بن ماهان على الأمين، ونقله إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، كما أمر العباس بن موسى بن عيسى وبيدة أم الأمين أن تنتقل قهراً من قصرها. وقد انقسم أهل بغداد إلى قسمين، جماعة معه، وأخرى ضده، وأخيراً تغلّبت جماعة الأمين، وقبضت على الحسين بن علي بن ماهان غير أن الأمين قد عفا عنه واستوزره، ولكنه فرّ منه على غفلة منه فأرسل إليه الأمين من أدركه وقتله، وجددت العامة البيعة للأمين. واقترب طاهر بن الحسين من بغداد فعاد الناس إلى الاختلاف إذ خلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعت المأمون. وحجّ في هذا العام العباس بن موسى بن عيسى من قبل المأمون، ودعا هناك له، فكان أول موسم يُدعى فيه للمأمون.

شدّد طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين الحصار على بغداد، وهرب منها القاسم بن الرشيد وعمه المنصور بن المهدي وسارا إلى المأمون فأكرمهما، وولّى أخاه القاسم جرجان، وضعف أمر الأمين كثيراً وخاصة بعد أن وضع طاهر بن الحسين يده على الضياع والإنتاج، ودعا الأمراء إلى بيعة المأمون وقد أجابه عدد كبير منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان، وكثّر أنصار المأمون في حين لم يبق عند الأمين ما ينفقه على نفسه وجنده.

دخل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد عام ١٩٨ واشتد القتال فيها، وتفرّق عن الأمين أصحابه، فجمع من بقي معه، وشاورهم في الأمر، فمنهم من أشار عليه بالذهاب إلى الجزيرة والشام ومواصلة القتال، ومنهم من أشار

عليه يطلب الأمان من طاهر بن الحسين فإن أخاه المأمون به رحيم، ومنهم من رأى أن يكون طلب الأمان من هرثمة بن أعين، فسار إلى هرثمة وطلب منه الأمان فأمنه، وركب معه في سفينة، فبلغ الخبر طاهر بن الحسين فغضب فأغرق السفينة، ونجا الأمين سباحةً، والتجأ إلى بيتٍ فسارت إليه جماعة من العجم وقتلته في البيت الذي كان فيه وذلك يوم الأحد الرابع من صفر من عام ثمان وتسعين ومائة.

كان الأمين كثير اللهو، محب الصيد، مكثر من اقتناء السودان والخصيان، تاركاً أمور الدولة، وأما ما أشيع من شربه للخمر فغير ثابت، فقد وجد أبا نواس سجيناً مع الزنادقة في سجن الرشيد وذلك في أول توليه الخلافة فأخرجه من السجن، فلما علم بشربه الخمر أعاده إلى السجن ثانيةً.

مع الروم

لم تحدث حروب واسعة مع الروم أيام الأمين، إذ كان الروم مشغولين بأحداثهم الداخلية كالمسلمين، فقد مات نقفور عام ١٩٣ في حربه مع البرلغان بعد أن ملك تسع سنوات، وخلفه ابنه استراق، وكان جريحاً، فلم يلبث أن مات بعد شهرين من حكمه، فخلفه ختنه، زوج أخته، ميخائيل بن جورجس، ثم ترك ميخائيل الحكم عام ١٩٤ بعد أن أحسّ الغدر من الروم إذ حاولوا قتله، وأصبح بعدها راهباً، وتولى حكم الروم بعده إليون.

الحركات

عندما تولى الأمين الخلافة كانت حركة رافع بن الليث لا تزال قائمةً، وقد كُلّف هرثمة بن أعين بالقضاء عليها، وقد تمكّن هرثمة في بداية أيام الأمين من حصار رافع في مدينة سمرقند، ثم دخل حائطها، فلجأ رافع إلى داخل المدينة وراسل الترك فوافوه، وأصبح هرثمة بين الترك ورافع محصوراً، ثم رجع الترك فضعُف أمر رافع... ثم راسل المأمون وطلب منه الأمان فأمّنه، فجاء رافع إليه فأكرمه المأمون وقدّمه.

وثار أهل حمص على عاملهم إسحاق بن سليمان الذي ولاّه الأمين عليهم، فانتقل إسحاق إلى بلدة السلمية، وأرسل الأمين مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ومعه عافية بن سليمان، فسجن عدةً من وجهاء مدينة حمص، وأحرق بعض أحيائها، فسأله أهل المدينة الأمان فأجابهم، وسكنوا ثم ثاروا، فضرب أعناق بعضهم.

وفي عام ١٩٥ ظهر بالشام السفياني وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودعا إلى نفسه، وقد حاصر والي الأمين على دمشق وهو سليمان بن أبي جعفر، غير أن الوالي قد تمكن من الهرب من دمشق، فأرسل الأمين إلى السفياني الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، فلما وصل إلى الرقة أقام بها، ولم ينفذ إليه.

الإمارات

بقيت الإمارات التي كانت أيام الرشيد هي نفسها أيام ابنه الأمين، فدولة الخوارج الصفرية في سجلماسة، ويحكمها أبو المنصور اليسع بن أبي القاسم.

ودولة الخوارج الأباضيين في تاهرت، ويحكمها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهي الدولة المعروفة بالرستمية، وقد قامت عليه بعض الحركات من الخوارج أنفسهم.

أما الأمويون في الأندلس فقد قوي أمرهم، وكان الحكم هناك للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف باسم الحكم الربضي.

وكانت دولة الأدارسة تحت حكم ادريس الثاني.

وفي القيروان كانت دولة ابراهيم بن الأغلب يقوى أمرها، وقد ثار عليها في تونس عمران بن مخالد التميمي عام ١٩٥، غير أن هذه الحركة لم يُكتب لها النجاح، وتوفي ابراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وخلفه ابنه عبد الله أبو العباس.

وجاءت أيام المأمون ولم تزل الإمارات المستقلة مقتصرة على الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، وتندرج في خلافها للعباسيين من الشرق إلى الغرب، فالأغالبة يعدّون عمالاً للعباسيين والخوارج يهادنون الدولة في بغداد وعمالها في القيروان، فالأدارسة الذين يختلفون معهم حتى نصل إلى الأندلس الذين هم في عداء مع العباسيين.

المأمون
عبد الله بن هارون
١٩٨-٢١٨هـ

ولد المأمون في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠ في اليوم الذي تولى فيه عمه موسى الهادي، وبويع فيه أبوه الرشيد، وأمه أم ولد، وتسمى مراجل.

بويع ولياً للعهد بعد أخيه الأمين عام ١٨٢ مع أنه أكبر منه بستة أشهر، وبويع بالخلافة يوم الخميس ٢٥ محرم عام ١٩٨ قبيل مقتل أخيه الأمين بعشرة أيام تقريباً مع أنه قد دعي له بالخلافة مرة من قبل عامين، والأمين محصور في بغداد.

كان المأمون أبيض جميلاً، طويل اللحية، ضيق الجبهة، بخده خال أسود.

بعد مقتل الأمين ولّى المأمون الحسن بن سهل الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن، وولّى طاهر بن الحسين الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وطلب منه أن ينتقل إلى الرقة، وعهد إليه حرب نصر بن شبث. وبقي المأمون في مرو وكأنه رمز لأمير المؤمنين. والولاة الكبار يرسلون العمال عنهم إلى الأمصار ويتصرفون بشؤون البلاد، وهذا ما أضعف هيبة الحكم، وأطمع فيه، ما دام المسؤولون عنه ليسوا من العباسيين. كما طلب المأمون من هرثمة بن أعين أن يرتحل إلى خراسان.

وجاء الحسن بن سهل إلى بغداد ليتولى شؤونها ويرسل عماله منها. وحدثت حركات في بغداد ناقمة على الحسن بن سهل الذي كان بالمدائن، وناقمة لما

حدث من موت هرثمة بن أعين في السجن بشكل غامض قيه كثير من الشائعات، وأخرجوا علي بن هشام والي الخمس على بغداد، وكما شارك في هذه الأحداث زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي كان بالسجن وأفلت منه.

وراود أهل بغداد المنصور بن المهدي على الخلافة فأبى عليهم، وطلبوه على الإمارة في بغداد باسم المأمون فوافق على ذلك فأمّروه عليهم.

وبايع المأمون ولياً لعهده علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسمّاه الرضا من آل محمد، وطلب من جنده طرح السواد ولبس الخضرة فأغضب ذلك آل العباس، فبايع أهل بغداد عمّ المأمون ابراهيم بن المهدي وسمّوه المبارك، وبايعوا من بعده ولياً لعهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون، وذلك في أول يوم من عام ٢٠١

وأخبر المأمون بأسباب ما حدث من ترك أمر الدولة للحسن بن سهل ولأخيه الفضل بن سهل الذي ينقل له الأخبار مشوهةً غير صحيحة، وبُعده من مركز حكمه، فكان أن جاء إلى بغداد عام ٢٠٢، وقتل الفضل بن سهل بطروف غامضة، وتزوج المأمون بوران ابنة الحسن بن سهل، كما زوّج ابنته أم حبيب لعلي الرضا، وابنته الثانية أم الفضل لمحمد بن علي بن موسى.

ومات علي الرضا فجأة، وهو مع المأمون، أثناء قدومهم إلى بغداد، وعند مرورهم بطوس، فدفنه جانب أبيه الرشيد، وهو الذي صلّى عليه، وكاتب الحسن بن سهل وأهل بغداد بأن السبب الذي نقموا عليه قد زال بوفاة علي الرضا.

واختلف أهل بغداد ثانية، وانتصر خصوم ابراهيم بن المهدي فخلعوه، فاختفى، وبايعوا للمأمون، وكتب المأمون لطاهر بن الحسين أن يوافيه

بالنهروان، فترك طاهر الرقة وسار إليه.

أما هرثمة بن أعين فعندما انتهى من أبي السرايا أرسل له المأمون كتاباً يوليه فيه الشام أو الحجاز، ولكنه أحب السير إلى المأمون، فسار إليه إلى مرو، وكان الفضل بن سهل قد أوغر عليه صدره فاتهمه بتحريض أبي السرايا الذي لم يكن إلا أحد رجاله، وأنه كان في الواقع بجانبه، فلما وصل هرثمة إلى مرو وبخه المأمون وبكّته ثم سجنه، وبعد أيام مات بالسجن ـ والله أعلم ما سبب موته ـ.

ودخل المأمون بغداد فولّى أخاه صالح بن الرشيد على البصرة، وولّى عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب على الحرمين. وأعطى طاهر بن الحسين ولاية خراسان من بغداد إلى أقصى مشرق الدولة الإسلامية. وولّى يحيى بن معاذ الجزيرة، وعيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيا وأذربيجان وكلفه بمحاربة بابك الخرّمي، وأما مصر فكانت للسري بن الحكم. وولى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله مكانه على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث، وعندما مات يحيى بن معاذ عام ٢٠٥ أصبح عبد الله والياً على الجزيرة.

وتولى طاهر بن الحسين فجأة عام ٢٠٧ فتولّى ابنه طلحة المصر عدة سبع سنوات، وقبل باسم أخيه عبد الله، وعندما تولى طلحة، انتقل عبد الله إلى مرو. وكان أحمد بن أبي خالد يساعد طلحة في خراسان ويقوم له بالأمر.

وظفر المأمون بعمه ابراهيم بن المهدي عام ٢٠٩ متخفياً بلباس امرأة، كما ظفر ببعض الذين بايعوه، وتكلم الحسن بن سهل بابراهيم فعفا عنه المأمون، ولكنه قتل بعض أنصاره.

وأظهر المأمون عام ٢١٢ القول بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على سائر الصحابة، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله

. وفي عام ٢١٨ حدثت المحنة للعلماء بسبب القول بخلق القرآن، وقد تعرض عدد منهم للتعذيب ومنهم الإمام أحمد بن حنبل.

وبايع من بعده لأخيه المعتصم أبي إسحاق محمد بن الرشيد. وبينما هو في بلاد الروم إذ أدركه الوفاة في ٢٥ محرم من عام ٢١٨ فدفن في طرسوس.

الحركات[٣٠]

لا شك في أن الخلاف على السلطة يقلل من هيبة الحكم، ويدع المجال لكل طامح في أن يُظهر نفسه، ولكل من يُفكر بالإمرة أن يدعو لنفسه، وأكثر من هذا فيما إذا كان الخلاف بين جماعة الحكم أو أفراد الأسرة الحاكمة إن كان الحكم وراثياً. فلما وقع الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون شجع عدداً في الظهور وقيادة حركات تناوئ السلطة.

ولا شك أن الحركات التي قامت أيام المأمون بل التي تقوم في كل وقت تختلف في دعوتها، وشعارها، وأهدافها، وزعامتها. ولما كان المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية ينقاد للإسلام وإلى دعوته وشعاره وهدفه لذا فإن الزعماء يتفقون في هذه الأمور ولكنهم يختلفون فيمن يدعون له، فمن يجد في نسبه مجالاً لالتفاف الناس حوله يدعو علناً لنفسه، ومن لم يجد يختفي وراء أسماء موهومة أو غير ظاهرة.

١ ـ ثار الحسن الطرش يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد جبى الأموال، وأغار على التجار، ونهب القرى، واساق الوالي وذلك عام ١٩٨، وعاث في الأرض فساداً تحت شعار هذه الدعوة، وسار إليه أزهر بن زهير بن المسيب فقتله في شهر المحرم من عام ١٩٩، ولم تدم هذه الحركة أكثر من شهرين، ولكن كان لها أثر إذ كانت مجالاً للاختفاء تحت أسماء غامضة والإنطلاق من ورائها، كما كانت مجالاً لادعاء نسب كاذب كي ينقاد له الناس وغالباً ما

يكون سبباً لأن أبيت.

٢ ـ وفي الكوفة تقدم على المأمون محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا تقدم عليه لسوء تصرفه، والتماسك الفضل بن سهل وأخيه الحسن من دون بني هاشم، وكان قائده السري بن منصور والمعروف بأبي السرايا. وكان عامل الحسن بن سهل على الكوفة سليمان بن أبي جعفر المنصور، ويقوم مقامه خالد بن محجّل الضبي، وقد أخرج ابن طباطبا عامل العباسيين على الكوفة وسيطر على المنطقة.

أرسل الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف مقاتل فهزموا أمام أبي السرايا الذي استولى على ما كان مع الجيش العباسي من مال وسلاح وعتاد، وفي اليوم التالي مات ابن طباطبا فجأة، ويقال: إن أبا السرايا قد سمّه ليستتب الأمر ـ والله أعلم ـ. وأقام أبو السرايا فتى صغيراً مكان ابن طباطبا هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويبقى هو يسير الأمور. وكان أبو السرايا من قتل من رجال هرثمة بن أعين.

سار عيسوس بن محمد بن أبي خالد في أربعة آلاف مقاتل إلى أبي السرايا فهزم الجمع وقتلوا كلهم. ودخل أبو السرايا البصرة وواسط، واتجه نحو المدائن فدخلها، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث هزم فيها وأخرج منها.

وهاج الطالبيون في الكوفة وانطلق محمد بن محمد بن زيد على رأس الجموع إلى دور بني العباس في الكوفة، فانتهبوها، وأحرقوها، وأخرجوا بني العباس من مدينتهم.

وتوجه أبو السرايا حسين بن الحسن الأفطس بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلى مكة ليأخذها ويقيم للناس الحج، فلما وصل إلى ضواحي مكة لم يجرؤ على دخولها فحج الناس عامهم بلا إمام إذ خرج من مكة واليها العباسي داود بن عيسى، ولم يرغب في قتال في بيت الله الحرام، واتجه نحو العراق.

وبعد الموسم دخل الحسين بن الحسن الأفطس بعد أن شجعه بعض الطالبيين فاستولى على مكة واستقرّ فيها.

ووجه أبو السرايا أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فدخلها دون قتال.

وفي عام ٢٠٠ توجه هرثمة بن أعين إلى أبي السرايا فدارت الدائرة على هرثمة ثم كانت له، وفرّ أبو السرايا من الكوفة، وسار إلى واسط فهُزم أيضاً هزيمة نكراء، وفرّ مع من بقي معه يريد بلده رأس العين، وفي الطريق قُبض عليهم فأخذوا إلى الحسن بن سهل فقتلوا.

أما البصرة فبقيت بيد زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عُرف باسم زيد النار لكثرة ما أحرق من دور للعباسيين في البصرة ولكنه هُزم أيضاً، وأخذ أسيراً فسُجن في بغداد.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس فقد كرهه أهل مكة لما أساء ولما أقام من ظلم، وحين رأى الطالبيون انصراف الناس عنهم ولّوا عليهم محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على كره منه إذ كان مخالفاً لتصرّف اهل بيته، محبوباً عند الناس، وهو من أهل العلم والفضل، أخذ العلم عن أبيه جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وأطلقوا عليه اسم أمير المؤمنين، ولم يكن له من الأمر شيء، وإنما المتصرف بشؤون البلد هو ابنه علي والحسين بن الحسن الأفطس، والقلم القائم.

وجاء اسحاق بن موسى من اليمن مغادراً لها، ومرّ على مكة فقاتل الطالبيين أياماً ثم كره الحرب، فتركهم وسار نحو العراق فجاءته نجدة فرجع إلى مكة فهزم الطالبيين ودخل مكة وتفرّق الطالبيون في البلاد. ولكن عاد محمد بن جعفر، وأعلن خلع نفسه، وجدّد بيعته للمأمون، واعتذر عما كان قد حدث منه.

٣ ـ وخرج في اليمن ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد سار إليها من مكة عندما بلغه خروج أبي السرايا في الكوفة. ولما وصل إليها غادرها واليها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وفعل كما فعل عمه داود بن عيسى في مكة. ولما سيطر على اليمن أرسل أحد أحفاد عقيل بن أبي طالب ليقيم للناس الحج، ولكنه لم يجرؤ دخول مكة لوجود أبا اسحاق محمد بن الرشيد فيها، ولذا فقد اعترض الحجاج وسلبهم.... فأرسل إليه أبو إسحاق من قتله وأخذ منه ما سلب فأعاده إلى الحجاج، وعاد بقية جيشه إلى اليمن.

٤ ـ وتب أخو أبو السرايا عام ٢٠٢ بالكوفة فبيّض، ولكنه قتل بأول لقاء وأرسل رأسه إلى ابراهيم بن المهدي في بغداد.

٥ ـ خرج في بغداد المطوّعة برعامة خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري ضد الفساق والشطار الذين كثر بلاؤهم، وانتشر فسقهم، وعمّ اعتداؤهم.

٦ ـ تحرك الخوارج بإمرة مهدي بن علوان فسار إليهم أبو إسحاق محمد بن الرشيد فهزمهم.

٧ ـ خرج عام ٢٠٧ عبد الرحمن بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد (عك) باليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وكان خروجه بسبب سوء تصرف العمال في تلك الجهات، فأرسل له المأمون دينار بن عبد الله، وكتب معه كتاب أمان لعبد الرحمن، فحضر دينار الموسم، واتجه إلى اليمن، فلما وصل إلى تلك الجهات أعطى كتاب الأمان لعبد الرحمن، فقبل ذلك منه، وأقبل إليه، وسار معه إلى بغداد.

٨ ـ وفرّ الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى بلاد كرمان، وتحصّن بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فقضى عليه، وأرسله إلى المأمون.

فعفا عنه، وذلك عام ٢٠٨.

٩ ـ وثار نصر بن شبث العقيلي، وكان أسلافه من رجالات بني أمية، وتقم على العباسيين، لانصرافهم عن تقديم العرب، حسبما ارتأى، فلما مات هارون الرشيد وحدث الخلاف بين الأمين والمأمون زادت نقمته، فعندما بويع المأمون رفض بيعته، ثار في (كيسوم) [1] شمالي حلب حيث كان يقيم وتغلب على ما جاورها من البلدان، وملك (سُمَيْساط) [2]، وانتقل إلى الجانب الشرقي من الفرات، واجتمع عليه كثير من الأعراب، وقوي أمره، وحاصر حران عام ١٩٩، وحاول أن يتقرّب إليه الطالبيون، فلم يقرّهم على رأيهم، كما رفض البيعة لبعض أفراد بني أمية. وكان عبد الله بن طاهر في الرقة مكلّفاً بحربه حتى عام ٢٠٤، ثم أصبح عبد الله والياً على الجزيرة عام ٢٠٥ ومكلّفاً بالمهمة نفسها، وطالت حرب نصر، حتى ضيّق عليه عبد الله وحصره عام ٢٠٩، وأعطاه المأمون أماناً فوافق ضمن شروط، منها ألا يطأ بساط المأمون، فرفض الخليفة شرطه، واشتد عبد الله بن طاهر في حربه، وطال حصاره في كيسوم، وانتهى أمره بالاستسلام عام ٢١٠، فسيّره عبد الله إلى المأمون، وهو ببغداد، فدخلها في صفر عام ٢١٠.

١٠ ـ وخرج في مصر عبيد الله بن السريّ فلما انتهى عبد الله بن طاهر من قتال نصر بن شبث وجهه المأمون إلى مصر، ولمكّن من هزيمة ابن السريّ وحصاره في الفسطاط، وارغامه على الاستسلام والموافقة على طلب الأمان. وسار عبد الله بعدها إلى الاسكندرية وقد غلب عليها بعض الأندلسيين الذين انتقلوا من الأندلس بعد موقعة الربض، فآذنهم بالحرب إن لم يُعلنوا الطاعة، ثم اتفق معهم على أن يخرجوا إلى إحدى بلاد الروم وليس إلى

---

(١) كيسوم: من أعمال سميساط فيها معدن كبير على ثلاثة فراسخ لنصر بن شبث.

(٢) سُمَيْساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، وهذا قلعة في شق منها يسكنها الأرمن.

البلاد الإسلامية، وأن يثيروا فيها وقعلاً فقد خرجوا إلى جزيرة كريت (اقريطش)، واستقروا فيها بعد أن غلبوا عليها، وذلك عام ٢١٠.

١١ - وخلع أهل (قم) الطاعة مستكثرين ما عليهم من خراج فأرسل إليهم علي بن هشام فأخضعهم وهدم سور (قم).

١٢ - وفي عام ٢١٣ خرج في مصر عبد السلام وابن جليس، فسار إليهم عام ٢١٤ المعتصم أبو إسحاق ابن الرشيد، وقبض عليهما وقتلهما.

١٣ - وفي السند خالف بشر بن داود بن يزيد المهلبي عام ٢١٣ فولى المأمون على السند عمران بن عباد فاستأمنه بشر عام ٢١٦ فأمنه، وعفي عنه.

١٤ - وخرج عام ٢١٤ بلال الضبابي الشاري فوجه المأمون إليه ابنه العباس ومعه علي بن هشام وهارون بن محمد بن أبي خالد، واستطاع هارون أن يقتل بلالاً.

هذه الحركات الكثيرة التي قامت أيام المأمون إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف هيبة الحكم الذي نتج عن الخلاف بين الأخوين على السلطة، ثم بقاء المأمون مدة من الزمن بعيداً عن مركز الحكم في مرو الأمر الذي أطمع الكثير من الطامعين بالخلافة وعدم الطاعة، وإن قوي الحكم نسبياً عندما رجع المأمون إلى بغداد إذ بدأ يتعرف على الأوضاع بنفسه وعلى قرب منها بينما كانت تصل إليه كثير من الأمور مغلوطة أو تخفى عنه عن طريق الحسن بن سهل.

١٥ - وأعظم الحركات التي قامت أيام المأمون هي حركة بابك الخرمي الذي كان فقيراً وضيعاً إذ مات أبوه وهو صغير، وقد يكون مجهول النسب، وعمل راعياً لمساعدة أمه. هذه النشأة قد أثرت على نفسية بابك وجعلته يحقد على مجتمعه وعقيدته. وعمل خادماً بعد ذلك عند جاويدان بن سهرك، فأخذ عنه بعض الأفكار الخرمية التي تقوم على العقيدة بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء، وقد تكون

هذه الأفكار وجدت لها مكاناً في نفسية بابك السيئة، والتي تحمل حقداً على الناس. وعندما مات «جاويدان بن سهرك» ورثه بابك بتدبير وتخطيط من زوجة «جاويدان» التي تزوجت بعد ذلك بابك.

وجد بابك الخرمية على شيء من القوة فتحرك عام ٢٠١، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مرو فعندما جاء إلى بغداد أرسل الولاة وبعث الجيوش لقتال بابك، وحدث قتال بين يحيى بن معاذ والي الجزيرة وبين بابك عام ٢٠٤ ولم يظفر أحدهما بالآخر. ومات يحيى عام ٢٠٥، واستمر قتال بابك من قبل والي اذربيجان وأرمينيا عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملة إلى الخرمي استمر تجهيزها سنة كاملة، ولكنه هُزم.

وولى المأمون على أذربيجان وأرمينيا زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك وذلك عام ٢٠٩ فتمكن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولى المأمون على أذربيجان ابراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، وأرسل المأمون عام ٢١٢ محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك فتمكن بابك من محمد بن حميد وقتله عام ٢١٤، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً. وقد رثاه أبو تمام في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وفيها يقول:

ألا في سبيل الله من غُطّيت له ... فجاج سبيل الله واتّضح الثغر
تُوفّيت الآمال بعد محمد ... وأصبح في شُغل عن السفر السفر
فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردّى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلاّ وهي من سندس خضر

وقوي أمر بابك، وبعث له المأمون عام ٢١٨ اسحاق بن ابراهيم غير أن المأمون قد تولى، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه إسحاق على الخرّمية، إلا أن أمرهم بقي قوياً فجاء المعتصم ليتابع ما بدأ به المأمون وقد حصل على ما يريد.

الفتوحات

حدثت فتوحات قليلة أيام المأمون، وبالأصل فإن الفتوحات أيام الدولة العباسية تعد محدودة وعلى نطاق ضيق، بل تم توقف الفتوحات الواسعة منذ أواخر الدولة الأموية.

فتح والي طبرستان عام ٢٠٢ للهـ الديلم والشيرز من بلاد الديلم، وأصبحت هاتين المنطقتين ضمن أرض الدولة الإسلامية منذ ذلك اليوم.

وفتح أحمد بن أبي خالد (أشروسنة) في بلاد ما وراء النهر عام ٢٠٧.

أما الروم فقد بقوا يعانون من مشكلاتهم الداخلية في عام ٢٠٠ قتل الروم ملكهم إليون، وأعادوا ميخائيل بن جورجس حاكماً عليهم مرة ثانية، وبعد أن حكم إليون ست سنوات، وبقي ميخائيل ملكاً حتى توفي عام ٢٠٩، فخلفه ابنه تيوفيل بن ميخائيل، فلما قوي أمره كان بابك الخرمي قد اشتد ساعده في منطقة أذربيجان القريبة من بلاد الروم، وهذا ما أخاف المأمون من أن يحدث تعاون بين العدوين اللدودين للإسلام هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد كان المأمون قد انتقل إلى بغداد وتعرف على حالة البلاد بشكل جيد لذا فقد رغب أن يقاتل الروم لتقوى هيبة المسلمين في نظرهم، وشجعهم من مد يد المساعدة لبابك الخرمي، وليتصرف الناس من المشكلات الداخلية بتوجيههم نحو الخارج.

سار المأمون بنفسه لحرب الروم عام ٢١٥ عن طريق بغداد ـ الموصل ـ منبج ـ دابق ـ القلاية ـ المصيصة ـ طرسوس، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، وفتح حصن زُرَه وعنوة وهدمه، ثم دخل حصن ماجدة، وعفا عن أهله، وخرج من بلاد الروم إلى دمشق.

وعاد عام ٢١٦ إلى غزو بلاد الروم ولعل كان الغزو في هذه المرة بسبب اعتداء الروم على أهل طرسوس والمصيصة، وخرج المأمون من بلاد الروم إلى دمشق ومصر.

وغزا الروم أيضاً عام ٢١٧، كما وجه ابنه العباس لحرب الروم عام ٢١٨، كما انطلق هو بنفسه على رأس جيش، وأدركته المنية في بلاد الروم حيث نُقل إلى طرسوس ودفن فيها.

ويبدو أن المأمون قد شعر ما آل إليه العرب من رفاهية فركنوا إليها وتركوا القتال بل إن ذلك قد أضعف عندهم روح الجهاد، كما أن الفرقة قد عصفت رعها عليهم فمزقتهم، وأطمعت بعضهم بالمراكز فشجع ذلك المتمردين وقوى أمرهم، وأمر الفرس كان قريباً من أمر العرب إضافة إلى أن بعضهم وإن كانوا قلة لا تزال أفكار المجوسية تراودهم كما تراودهم فكرة الدولة الفارسية القديمة وأمجادها ـ على حد زعمهم ـ لذا فقد بثّوا بعض أفكارهم واستغلوا بعض أبناء جنسهم باسم العصبية أحياناً، وباسم المعرفة والبساطة أحياناً أخرى، لذا فقد طلب المأمون من أخيه المعتصم أن يجلب الجند الأتراك إذ كانوا على درجة من القوة لم تفسد طباعهم الرفاهية بعد، كما لم تمزقهم الخلافات إلى ذلك الحين.

ويمكن أن نعدّ من الفتوحات ما تم في بلاد النوبة، والبجاة، وكان النوبيون النصارى قد وقفوا في وجه الفتوحات الإسلامية، وعقدوا صلحاً، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الصلح، فقاتلهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٣١

وأجبرهم على عقد صلح جديد. ثم تجمّعوا من جديد عام ١١٨ للوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي هادنهم إذ كان مشغولاً بأحداث إفريقية. ولكن هؤلاء النوبيين والبجاة لم يحفظوا هذا العهد وكثُرت تعدّياتهم على منطقة أسوان، وزاد أذاهم أيام المأمون فقاتلهم وعقد معهم عهداً جديداً قيدت بلادهم ضمن أرض الدولة الإسلامية، وأهم شروط هذا العهد:

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين دهلك [1] وباضع [2] مُلكاً للخليفة، وأن يكون كنون بن عبد العزيز ملكاً على البجاة.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجاة كل عام الخراج على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل وثلاثمائة دينار.

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوء، ولا يُعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مُقيماً أو مُجتازاً أو حاجّاً، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم.

٦ ـ إذا نزل البجاة صعيد مصر مُجتازين أو تُجاراً فلا يُظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال [3]

كما فتحت جزيرة صقلية في عهد المأمون على يد الأغالبة ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

---

(١) دهلك: جزر في البحر الأحمر مقابل ميناء مصوع الإريتري.

(٢) باضع: ميناء قديم جنوب مصوع.

(٣) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الثاني.

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في مغرب الدولة الإسلامية، وإنما كانت استمراراً لما حدث في عهد أسلاف المأمون.

١ ـ الدولة الرستمية

كانت دولة الخوارج الأباضيين في تاهرت تحت حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وقد تولى عام ٢٠٨، وخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبقي يحكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٨ أي إلى آخر أيام هذه الدولة.

٢ ـ دولة بني مدرار

كانت دولة بني مدرار، وهم من الخوارج الصفرية، تحت حكم أبي المنصور اليسع بن أبي القاسم، وقد تولى عام ٢٠٨، وخلفه ابنه مدرار بن أبي المنصور، وتزوج ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الأباضية السابقة الذكر، وأنجب منها ولداً أسماه ميموناً، وعرف باسم ميمون ابن الرستمية وذلك لأن مدراراً كان له ولد آخر يحمل الاسم نفسه «ميمون» ومن زوجة ثانية اسمها بقية لذا قيل له ميمون بن بقية. وقد حدث الخلاف بين هذين الأخوين فيما بعد.

٣ ـ الدولة الأموية في الأندلس.

كان حاكم الأندلس أيام المأمون الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف بالربضي، وتولى الحكم عام ١٨٠ وبقي في الحكم حتى عام ٢٠٦، وخرج عليه عمّاله واستولوا على طليطلة وبلنسية، فحاربهم الحكم، واسترد البلاد التي استولوا عليها. واستغل النصارى في الشمال هذا الخلاف وهاجموا أرغونة إلا أن الحكم استطاع أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة واستنجد بشارلمان ملك الفرنج غير أنه فشل في ثورته.

ولما تولى الحكم عام ٢٠٦ خلفه ابنه عبد الرحمن الذي عرف باسم عبد الرحمن الأوسط، وفي عهده استتب الأمن وساد النظام فانصرف إلى العلم والبناء والاهتمام بشؤون الدولة، كما اعتنق في أيامه الإسلام عدد كبير من النصارى الإسبان. ومع الحرية والأمن التي عاش بها النصارى إلا أنه قد نشأت عندهم حركات الاستخفاف وهي شتم رسول الله ﷺ، والكلام السيء عن كتاب الله القرآن وذلك بتحريض بعض رجال الدين.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط هاجم أمير البيرت وبعض أمراء النصارى في الشمال البلاد الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء.

٤ ـ الأدارسة

كان همّ ادريس الثاني حرب الصفرية من الخوارج، وقد توفي عام ٢١٣، وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وخلفه ابنه محمد بن ادريس، وفي عهده اختلف الأدارسة إذ نازعه أخوه عيسى بن ادريس وكان والياً على أزمور، فأراد أن يستعين عليه بأخيه القاسم بن ادريس والي طنجة غير أن القاسم قد رفض ذلك، فاستنجد بأخيه عمر والي مكناس فساعده، وهزم أخواه اللذين

في أمور واضحة.

٥ ـ الأغالبة

تولى حكم الأغالبة في القيروان عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وهو المعروف باسم عبد الله الأول، والمكنى بأبي العباس، وكان سيء السيرة، وزاد في الضرائب، وملّ الناس حكمه حتى أهله وعشيرته، وتوفي عام ٢٠١، وخلفه أخوه زيادة الله بن ابراهيم أبو محمد الذي قضى ست سنوات آمناً هادئاً، وفي سنة ٢٠٧ ثار عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية، وحاصر مدينة باجه فسيّر إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة[1].

وفي عام ٢٠٨ ثار على زيادة الله بتونس منصور بن نصير فأرسل له جيشاً بقيادة محمد بن حزة فهزم، فبعث له جيشاً آخر بقيادة الأغلب بن عبدالله ابن الأغلب، وعندّ الجيش بالقتل إن هزم فهزموا فخافوا من العودة إلى العباسية فالتحقوا بالثائر منصور، واستولوا على عدة مدن.

وسار منصور إلى القيروان وحاصرها ولكنه هُزم، وعاد منصور ثانيةً إلى حصار القيروان عام ٢٠٩، ولم يبقَ تحت يد زيادة الله سوى قمامس، والساحل، وطرابلس، وقد ضرب منصور السكة باسمه، ولم تنته ثورة منصور إلا عام ٢١٦ حيث اختلف منصور مع قائده عامر بن نافع الأمر الذي مكّن لزيادة الله.

وفي عهد زيادة الله فتحت جزيرة صقلية.

سبق أن غزا المسلمون جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، يوم كان والي مصر والفريقية معاوية بن حديج، وكان الغزو بقيادة عبد

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ـ الجزء الخامس.

الله بن قيس الفزاري.

ثم غزا المسلمون الجزيرة ثانيةً عام ١٠٣ أيام يزيد بن عبد الملك إذ سار إليها محمد بن ادريس الأنصاري وقد غنم كثيراً.

وغزا المسلمون في إفريقية صقلية عام ١٢٢ واستولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري على مدينة سرقوسة على ساحل الجزيرة الشرقي.

وغزاها أيضاً عبد الرحمن بن حبيب عام ١٣٠ ولكن أقدام المسلمين لم تثبت إلا أيام الأغالبة.

ففي سنة ٢١٦ عيّن امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني على جزيرة صقلية قسطنطين البطريق، فاستعمل قسطنطين هذا على الأسطول رجلاً رومياً اسمه فيمي، فأغار فيمي على سواحل إفريقية وتيهها، وبقي مدةً فيها، ولما وصل نبأ هذه الغارة إلى امبراطور الروم كتب إلى عامله على صقلية قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي، ولما بلغ الخبر فيمي أخبر أصحابه وأثارهم فالتجؤوا إلى صقلية مُفاضين ومُخالفين واستولوا على سرقوسة، وسار إليهم قسطنطين فهُزم إلى مدينة قطانيا شمال سرقوسة، فتبعه جيش أخذه وقتله، ونودي بفيمي ملكاً على الجزيرة، ثم ثار عليه أحد عماله على بعض نواحي الجزيرة، ووالي «بلرم»، وساروا إليه، واستولوا على سرقوسة ففرّ منهم، والجه إلى إفريقية وأرسل إلى زيادة الله يستنجده بحكم الجزيرة.

جهز زيادة الله جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات[1]، فانتصر المسلمون، ثم جاءت تجدات من الروم إلى نصارى صقلية، كما انقلب عليهم فيمي، وحلّ الوباء المسلمين، ومات أميرهم أسد بن الفرات، لذا لم

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله، ولد عام ١٤٢ هجرية، وأصله من خراسان، رحل أبوه في جيش ابن الأشعث إلى القيروان فحملته وهو طفل فنشأ بها، ثم بتونس، ورحل عام ١٧٢ إلى المشرق في طلب الحديث، ثم عاد إلى القيروان وولي قضاءها عام ٢٠٤، وهو من أصحاب مالك وله مصنف «الأسدية» في فقه المالكية.

يستطع المسلمون أن يتوغلوا داخل الجزيرة.

ولّى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، وجاءتهم نجدة من القيروان. كما وصلت إلى الجزيرة سفن من الأندلس فساعدت المسلمين. فحاصر المسلمون مدينة «بلرم» عام ٢١٥، ورغم عودة الأندلسيين فقد تمكّن المسلمون من فتح مدينة «بلرم» عام ٢١٦، وتوفي المأمون ولا يزال الفتح في جزيرة صقلية.

٨-
المعتصم
محمد بن هارون الرشيد
٢١٨ - ٢٢٧هـ

ولد محمد المعتصم بن الرشيد ببغداد في العاشر من شهر شعبان من عام تسعة وسبعين ومائة. وهو أحد ستة أولاد للرشيد كل منهم يدعى محمداً، ويكنّى المعتصم أبا إسحاق. كان مربوعاً، أبيض مشرّباً بالحمرة، حسن العينين، ضعيف الكتابة أقرب إلى الأمية، قوياً، شجاعاً، له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب. أمه تدعى «ماردة» أم ولد، ومن مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية.

ولي الخلافة في الثاني عشر من شهر رجب عام ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، وكان قد أوصى له بحضور ابنه العباس بن المأمون، وقد سعى بعض الأمراء في ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس وقال: إني قد بايعت عمي المعتصم. ورجع المعتصم إلى بغداد من طرسوس بعد دفن أخيه.

كان على المعتصم أعمال جسام منها قتال بابك والقضاء عليه، وقد تمكّن من ذلك، ومنها حرب الروم وتأديبهم على مناصرتهم أعداء الدولة وخاصةً بابك، وقد استطاع ذلك.

واستخدم المعتصم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد، وتضايق الناس منهم، حتى أضطر أن يقيم مدينة سامراء في مكان «القاطول» حيث كان يصيف الرشيد أحياناً أو يقضي بعض وقته، وهي إلى الشمال من بغداد على بعد مائة كيلو متر منها، وانتقل إليها عام ٢٢٠. ولعلّ من الأمور

التي استدعت المعتصم إلى زيادة الجند الأتراك قضية ابن أخيه العباس بن المأمون إذ ندم على ما بطهر على هذه البيعة بعد أن لامه عدد من الأمراء والقادة وحرّضه بعضهم على المخالفة والفتك بعمّه وخاصةً عندما كان معه في طريقها إلى عمورية، غير أن العباس رفض ذلك كي لا يحرم المسلمين من الغزو، وفي العودة حرّضه بعض الأمراء للفتك بعمّه في بعض الفجاج فأحسّ المعتصم بذلك فقبض على العباس وقيّده وسجنه، وحقق في الموضوع حتى أحاط بكل دقائقه، ثم قتله ومن كان معه في هذه القضية، وربما أكثر المعتصم بعدها من جلب الأتراك إذ أن عدداً من الأمراء بدا عليه الخوف، ولم يعُد يأمنهم.

وغضب المعتصم على قائده الإفشين بما وصل إليه من تشجيعه للزيار، كما أنهم أنه من وراء «متكحور»، وتغيّر فيها شعر الإفشين بهذا التغيّر، فكر بالفتك بالمعتصم وقوّاده بالسمّ، كما فكر بالفرار إلى أرمينيا، ومنها إلى بلاد الخزر، فاستدعاه وحبسه وذلك في عام ٢٢٥، ولم يلبث أن مات الأفشين في السجن عام ٢٢٦. وأما ابنه الحسن بن الأفشين فقد كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر ان يحتال عليه، فكتب عبد الله بن طاهر للحسن بولايته على المشرق مكان نوح بن أسد، وكتب إلى نوح يأمره أن يعتقل الحسن عندما يأتي إليه، وكانت ضغائن بين نوح والحسن. وسار الحسن بن الأفشين إلى المشرق ليتولى أمره من نوح فقبض عليه نوح وسيّره إلى عبد الله بن طاهر الذي وجّهه بدوره إلى المعتصم.

واحتجم المعتصم فأصابته حمّة فتوفي من أثرها، وكانت وفاته في السابع عشر من شهر ربيع الأول من عام ٢٢٧، وكان عمره يومذاك ثماني وأربعين سنة.

وتابع المعتصم مقالة المأمون في خلق القرآن، وقد امتحن أحمد بن حنبل رحمه الله في هذه القضية ونالَه ما نالَه من العذاب.

الحركات[٢٠٨]

أ ـ تولى المأمون ولا يزال أمر بابك الخرمي قوياً، واعتنق عدد من سكان الجبال مذهب الخرمية في السنة التي تولى فيها المأمون، فأرسل إليهم المعتصم جيشاً قوياً بإمرة إسحاق بن ابراهيم فانتصر عليهم. ثم سيّر إليهم عام ٢٢٠ جيشاً آخر بإمرة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصراً آخر على هؤلاء الخرمية، وجهز جيشاً أيضاً بإمرة حيدر بن كاوس الأشروسني وهو المعروف باسم الإفشين، والإفشين لقب أمراء أشروسنة قبل الإسلام، وأمدّ الإفشين بقوة كبيرة أيضاً بقيادة بُغا الكبير. تعرّف الإفشين قبل قتاله الخرّمية على مناطقهم وطريقتهم في الحروب التي غالباً ما كانت ليلاً وعلى شكل غارات سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات. وبقي الإفشين سنتين كاملتين في قتال بابك، وتمكّن من دخول مدينة «البذ» مقر بابك وحصنه المنيع في التاسع من رمضان عام ٢٢٢.

وكان أتباع بابك عندما تحلّ بهم الهزيمة يلجؤون إلى بلاد الروم فيقيمون في المرتفعات، ويضمّهم الروم إلى جنودهم الذين يرسلون لقتال المسلمين. وعندما حوصر بابك في «البذ» أرسل إلى تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم يحثّه على مهاجمة المسلمين، ويشجّعه بأن الخليفة لم يبقَ لديه من الجند ما يكفي لحراسته إذ بعث بكل ما لديه إلى القتال في أذربيجان ضد الخرّمية. وقد دفع هذا تيوفيل إلى الاعتداء على المسلمين. وفرّ بابك من «البذ» غير أن الإفشين قد

تمكّن من إلقاء القبض عليه، وحمله إلى سامراء مع بعض أتباعه ووصل إلى سامراء عام ٢٢٣. فقُتل بابك ومن حمل معه من الأسرى. وهكذا انتهت حركة بابك الخرمي بعد أن أقضّت مضاجع المسلمين مدةً تزيد على عشرين سنة.

٢ ـ في عام ٢١٩ خرج في الطالقان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فانتصر عليه عبد الله بن طاهر ففرّ مختفياً، فلمّا كان بـ (نسا) دلّ عليه فأخذ إلى عبد الله بن طاهر فسيّره إلى المعتصم، فسجنه فلما كانت ليلة عيد الفطر هرب من السجن واختفى عن أعين الدولة.

٣ ـ وهاج الرطّ الفساد في منطقة البصرة فأرسل إليهم المعتصم قوةً بإمرة عجيف بن عنبسة فقاتلهم، وبقي في ملاحقتهم وتتبع أفرادهم ما يقرب من تسعة أشهر، وقد أرهبهم إذ كان يقتل كل من يستطيع القبض عليه.

٤ ـ أظهر «مازيار بن قارن» خلاف المعتصم في طبرستان، وقد كان مازيار على خلاف مع عبد الله بن طاهر، ويبدو أن الأفشين قد شجع مازيار إذ كان يطمع في ولاية خراسان، فوجه عبد الله بن طاهر جيشاً لقتال «مازيار» من أمر المعتصم، كما بعث المعتصم جيشاً من بغداد لقتاله فلما أحدقت الجيوش بمازيار طلب الأمان فأعطيه.

٥ ـ وفي عام ٢٢٤ أظهر الخلاف منكجور الأشروسني، وكان الأفشين قد ولاه أذربيجان بعد الانتهاء من قتال بابك الخرمي، فأصاب على مالٍ عظيم من قرى الخرمية، فأخذه لنفسه، ولم يُعلم الأفشين، ولا الخليفة، فأخبر عنه بعض الشهود، فأنكر منكجور وهمّ بقتل المخبر الشاهد الذي التجأ إلى أردبيل واستغاث بأهلها فمنعوه، ووصل الخبر إلى المعتصم فطلب من الأفشين أن يعزله، فوجّه إليه الأفشين قوةً كبيرةً فلما علم منكجور خلع الطاعة، وجمع

جموعه الصعاليك، واعتصم بالحصون، ولم يلبث سوى شهر حتى وثب عليه أصحابه، وسلموه لجيش الأفشين فحُمل إلى سامراء.

٦ ـ وخرج في فلسطين عام ٢٢٧ ابو حرب المبرقع اليماني وذلك بسبب قتله جندي اعتدى على داره فهرب عندما طلبه الخليفة، ولجأ إلى بعض جبال الأردن، ووضع على وجهه برقعاً كي لا يعرف، وادعى أنه من بني أمية عندما كثر أتباعه أرسل له المعتصم، وكان عليلاً في علة الزحير الذي مات فيه، رجاء بن أيوب فوجده كثير الرجال فتركه حتى وقت الزرع إذ تركه رجاله وانصرفوا إلى أهاليهم، فنازله وتمكّن من أسره وحمله إلى سامراء.

مع الروم

لما حثّ بابك تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم على قتال المسلمين، وأن جندهم جنبهم في أذربيجان طمع تيوفيل في بلاد المسلمين فسار على رأس مائة ألف، وسارت معه الخرمية الذين التجؤوا إلى بلاده، واتجه إلى حصن «زبطرة» فخرّب البلد، وسبى النساء، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى ومثّل بكل من وقع في يده، ولما انتهى من «زبطرة» سار إلى ملاطية فأغار على أهلها، وعلى حصون المسلمين.. ووصل الخبر إلى المعتصم فأعلن النفير، وسار على رأس الجيش، وعسكر في غربي نهر دجلة. وبعث عجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني لنجدة لأهل زبطرة فوجدا أن الروم قد ارتحلوا عنها بعد أن فعلوا بأهلها ما فعلوا.

ولما انتهى المعتصم من أمر بابك سار إلى بلاد الروم، وسأل عن أقوى الحصون فقيل له عمورية ولم يتعرض لها أحد من القادة المسلمين من قبل، وأنها هي النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية[1]. وأقام هو على نهر سيحان[2]، وأمر الأفشين أن يدخل بلاد الروم عن طريق «الحدث»، كما أمر «الشاس» أن يدخل بلاد الروم عن طريق طرسوس، وحدد لهما يوماً يلتقيان

(١) تاريخ الطبري - الجزء التاسع

(٢) سيحان: نهر يصب في البحر المتوسط شرقي طرسوس، ويصب نهر الآمو، قرب «الطرسوس»

فيه عند النقرة. ودخل المسلمون أنقرة، وساروا بعدها إلى عمورية، وكان المعتصم على القلب، والأفشين على الميمنة، وأشناس على الميسرة، وأرهبوا البلدان فيما بين أنقرة وعمورية والمسافة بينهما سبعة مراحل (١٤٠ كيلو متر)، ووصل المعتصم إلى عمورية في السادس من رمضان عام ٢٢٣، وحاصر المسلمون المدينة، وتمكنوا من إحداث ثغرة في سورها، ودلّوا على مكانها، كان السيل قد هدمها، ورُمّمت بشكلٍ سريع على حجرٍ واحدٍ سُمكاً، فدكّتها ودخلوا المدينة، وكان لهذا الفتح أثر عظيم بما قوّى من معنويات المسلمين، وما أضعف من معنويات الروم. وخلّد هذا النصر أبو تمام بقصيدته التي يذكر فيها الفتح ويمدح المعتصم والتي يقول فيها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب[1] ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهنّ جلاء الشكّ والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً مُلفّقةً ... ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولا غرب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتّحُ أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلب
أبقت جدّ بني الإسلام في صعدٍ ... والمشركين ودار الشرك في صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ في الله مرتغب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب

(١) كان المحسنون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت فتح الزيت واللهب

ليست صوتاً وبطرياً [1] عرفت له ... كأس الكرى ورضاب الخُرّد العُرُب
حتى تركت عمود الشرك منعفراً ... ولم تعرّج على الأوتاد والطُّنُب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصّرت بالراحة الكبرى فلم تُرها ... تنال إلاّ على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ ... موصولةٍ أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نُصرت بها ... وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

(١) كانت امرأة اسمها هند في «بطرية» فصرخت «واعتصاه» فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، وانتسب له وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

الإمارات

تم تتبع أوضاع الإمارات المستقلة عن الدولة العباسية أو المنفصلة عما كانت عليه أيام المأمون.

١ ـ الدولة الرستمية كان يحكمها أفلح بن عبد الوهاب.

٢ ـ أما دولة بني مدرار فقد خلع مدرار بن أبي المنصور نفسه من الحكم وولى مكانه ابنه ميمون بن الرستمية، وطرد ابنه الآخر ميمون بن بقية وذلك عام ٢٢١ فنشأ خلاف بين الطرفين استمر ثلاث سنوات، تعقّب إثر ذلك ميمون بن بقية حيث كانت الصفرية تدعمه، وعندما استقر الوضع لميمون بن بقية طرد أخاه ميمون بن الرستمية إلى وادي درعه، ونصّب أباه ثانية إماماً. وهكذا عاد مدرار بن أبي المنصور مرة أخرى حاكماً للدولة غير أنه عاد وطلب ابنه ميمون بن الرستمية فعندها أرغمت الصفرية ميمون بن بقية على قبول الإمامة، وطرد أبيه، فطرد إلى إحدى قرى سجلماسة حيث بقي فيها حتى توفي عام ٢٥٣.

وبقي ميمون بن بقية حاكماً لدولة بني مدرار وإماماً للصفرية حتى عام ٢٦٣.

٣ ـ وكان يحكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقد أرسل إليه تيوفيل بن ميخائيل ملك بيزنطة وفداً وهدايا في محاولة لعقد حلف بينهما ضد العباسيين، وقد كان ذلك عام ٢٢٥ بعد الهزيمة التي مُني بها الروم أمام المعتصم

في أنقرة وعمورية. وقد ذكّر تيوفيل عبد الرحمن بمعاداة العباسيين لبني أمية وتخليص الحكم منهم، وما قُتل من الأمويين على أيدي بني العباس، وردّ عبد الرحمن بإرسال وفدٍ إلى القسطنطينية، ونال من العباسيين، ولكن لم تتعد الوفود الكلام المعسول الذي يلائم كلا الطرفين.

٤ - الأدارسة: توفي محمد بن ادريس الثاني عام ٢٢١ فخلفه ابنه علي بن محمد، وكان عمره تسع سنوات عندما تسوّل الحكم، ولُقّب بسام حيدرة، واستمر في الحكم ثلاث عشرة سنة حيث توفي عام ٢٣٤. ولم يحدث في أيام علي بن محمد ما يستحق الذكر.

٥ - الأغالبة: توفي زيادة الله بن ابراهيم عام ٢٢٣، ولم يتمكن المسلمون من فتح (قصر يانه) إذ ساروا إليها عام ٢١٩ ولم يستولوا عليها، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى ثم يرتدون عنها فيحاولون دخول غيرها من المدن.

وعندما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب فأزال المظالم، ووضع الخير في القيروان، وأرسل الجند إلى صقلية، وأخذ المسلمون عدة حصون في الجزيرة في أيامه، كما انتصروا على أسطول رومي فعاد إلى القسطنطينية مهزوماً، وسارت سريعة إلى (قصر يانة) فحاصرتها، وتوفي أبو عقال عام ٢٢٦ وهو في الثالثة والخمسين من عمره وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

٩٠

الوَاثِق

هَارُون بن محمد

٢٢٧-٢٣٢هـ

ولد هارون الواثق في العشرين من شهر شعبان من عام ستة وتسعين ومائة بطريق مكة المكرمة، وكان أبيض مشرباً بالحمرة، جميلاً، ربعة، حسن الجسم، على عينه اليسرى نكتة بياض، شاعراً، وراوية للشعر، حليماً صابراً. وكان عمه المأمون يفضّله على بعض ولده. وأمّه أمّ ولدٍ تُدعى «قراطيس».

بويع بالخلافة في التاسع عشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وعشرين ومائتين بعد وفاة أبيه المعتصم. وكان يقول بخلق القرآن كأبيه وعمّه وذلك في أول أمره، وأرسل إلى أمير البصرة يمتحن الأئمة وأهل العلم بهذا القول. وقتل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي كان ذا منزلة إذ كان جده مالك بن الهيثم أحد دعاة بني العباس الأوائل والمقدّمين، كما كان أحمد من أهل الحديث والعلم، وقد رفض القول بخلق القرآن، وتهجّم وحمل على القائلين تلك المقالة، وبدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأحضره الواثق من بغداد إلى سامراء وقتله، غير أن الواثق قد عدل عن هذه المقالة في آخر أمره.

ولما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق وحاصروا أميرهم فبعث إليهم الواثق قوةً بإمرة رجاء بن أيوب الحضاري وقد عسكروا في مرج راهط فقاتلهم في دومة وانتصر عليهم، وأصلح أمر دمشق وسار بعدها إلى فلسطين لقتال أبي حرب المبرقع.

وفي عام ٢٢٩ حبس الواثق كتّاب الدواوين، وضرب بعضهم، وفرض على

بعضهم مالاً كثيراً، إذ اتهم هؤلاء الكتّاب بالخيانة وعدم الإخلاص بالعمل.

وفي عام ٢٣٠ هاج الأعراب حول المدينة فساداً فأرسل إليهم الواثق جيشاً عليه بغا الكبير فقتلهم، وأدب القبائل التي أساءت كبني سُليم بين مكة والمدينة، وقطعان في شرق المدينة، وبني تميم من تميم.

أما بالنسبة إلى بلاد الروم، فقد مات تيوفيل بن ميخائيل عام ٢٢٧، وكان ابنه ميخائيل صبياً صغيراً، فحكمت الروم أم ميخائيل «تيودورة». وقد تبادل المسلمون والروم الأسرى عام ٢٣١ وكان عدد أسرى المسلمين ٣٦٢٤ أسيراً، وعدد أسرى الروم أكثر من هذا بكثير. وبعد تبادل الأسرى غزا أحمد بن سعيد بلاد الروم ثانياً.

ومات عبد الله بن طاهر والي خراسان عام ٢٣٠ فولّى الواثق مكانه ابنه طاهراً، فأصبحت ولاية خراسان وراثية.

وخرج محمد بن عمرو الخارجي في ديار ربيعة، فأسر وسيق إلى سامراء حيث قُتل.

وتوفي الواثق في نهاية عام ٢٣٢ (٢٤ ذي الحجة)، وبويع بعده أخوه المتوكل بن المعتصم، ولم يزد حكمه على خمس سنوات، وتسعة أشهر وعدة أيام.

أما بالنسبة إلى الإمارات فلم يتغير وضع دولتي الخوارج الأباضية في تاهرت والصفرية في سجلماسة فالأولى يحكمها أفلح بن عبد الوهاب والثانية يحكمها ميمون بن بقية. وكذلك فإن دولة الأدارسة يحكمها علي بن محمد بن إدريس من قبل عهد الواثق.

وكان حاكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقامت الحرب بينه وبين والي «طليطلة» موسى بن موسى وذلك عام ٢٢٨. وأغار الفرنجة على بلاد المسلمين عن طريق البحر، فأغاروا على شذونة وانتقلوا منها إلى اشبيلية، وهزموا المسلمين عدة مرات، وباتوا على مقربة من اشبيلية يوماً وليلة ثم

خرجوا إلى مراكبهم في النهر، وسمع عبد الرحمن بالخبر فأرسل قوة لأهل اشبيلية قاتلت الفرنجة الذين تراجعوا وخرجوا إلى «لبلة» حتى قُهروا.

أما الأغالبة فقد كان والي القيروان أبو العباس محمد بن الأغلب الذي سيّر عام ٢٢٨ الفضل بن جعفر الهمداني على رأس قوة بحرية نزلت في ميناء «ماسينا»، وبقي الفضل هناك بقاتل مدة سنتين، واستطاع المسلمون من دخول مدينة «ماسينا» عام ٢٣٢، وكذلك سار أبو الأغلب العباس بن الفضل الغزاري على رأس سرية عام ٢٢٩ دعماً للمسلمين هناك، وقد تولى قيادة فتح صقلية وإتمامه.

ووقعت الحرب بين محمد بن الأغلب وأخيه أحمد بن الأغلب فانتصر محمد بعد هزيمة ونفى أخاه أحمد إلى المشرق فمات بالعراق. ولما انتهى محمد من أخيه أحمد فوجىء بثورة سالم بن غلبون امير الزاب، وكان محمد قد عزله عن هذه الإمارة فأظهر الخلاف، وسار نحو القيروان، وجرت بين الطرفين معارك كان نتيجتها قتل سالم وانتهاء أمر حركته.

١٠٠.

المتوكل

جعفر بن محمد المعتصم

٢٣٢-٢٤٧هـ

وُلد جعفر المتوكل عام ٢٠٥، وأمّه أمّ ولد تُسمّى «شجاع»، وكان أسمر حسن العينين خفيف العارضين نحيفاً. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق في ذي الحجة من عام ٢٣٢، وكان الجند الأتراك يرغبون في تولية محمد بن الواثق، ولكنهم استصغروه فعدلوا عنه إلى جعفر المتوكل، وكان أول من بايعه أحمد بن أبي دؤاد.

أمر بالقبض على وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيّات حيث كان يكرهه إذ كان ابن الزيّات يرغب بأخذ البيعة لمحمد بن الواثق، ويحرض في زيادة بغض الواثق للمتوكل. وقد مات في السجن بعد مدة وجيزة من العذاب. كما غضب على جماعة من كتّاب الدواوين، وولّى ابنه المنتصر على الحجاز واليمن.

وأمر بالقبض على القائد «إيتاخ»، وأودعه السجن الذي بقي فيه حتى مات.

وأمر أهل الذمة أن يتميزوا بلباسهم عن المسلمين. كما أمر بهدم البيع والكنائس المحدثة في الإسلام.

وأمر بهدم قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء، وكذلك المنازل التي حوله.

وغضب بعد ذلك وفي عام ٢٣٧ على أحمد بن أبي دؤاد، وكان قد أصابه الفالج ثم توفي سنة ٢٤٠.

وبايع لأبنائه الثلاثة من بعده بولاية العهد : محمد وسماه المنتصر ، والزبير وسماه المعتز ، وابراهيم وسماه المؤيد . وضمّ لابنه المنتصر إفريقية والمغرب ، وجزيرة العرب ، والثغور الشامية ، وضمّ للمعتز خراسان ، وطبرستان ، والري ، وفارس ، وأرمينيا ، وأذربيجان . وضم لابنه المؤيد بلاد الشام .

ومنع القول بخلق القرآن ، وكتب بذلك المنع إلى الأمصار ، وأزال المحنة التي وقعت بسبب ذلك ، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل ، واستدعاه من بغداد إليه وأكرمه ، ولم يكن ليولي أحداً القضاء حتى يستشيره ، وكان تعيين يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة بمكان ابن أبي دؤاد عن رأيه . وقد أخذ المتوكل بمذهب الإمام الشافعي ، وبعد أول الخلفاء بهذا الأخذ . وفي سنة ٢٤٠ عزل يحيى بن أكثم من منصب قاضي القضاة .

سار المتوكل إلى دمشق بعد أن أحبها وأراد أن ينتقل إليها ويجعلها مقراً للحكم ، ووصل إليها عام ٢٤٤ ، وأمر ببناء القصور ، ونقل الدواوين ، ثم لم يطب له حوها فغادرها ، وقد عمل على بناء القصور على طريق داريا أي من جهة الجنوب من دمشق ، وبنى له قصراً بداريا . وكان يقول : إن الخلفاء تتصعب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني .

وعندما رجع من دمشق التي لم يمكث فيها أكثر من شهرين وعدة أيام أمر ببناء مدينة الماحوزة قرب سامراء ، وعرفت باسم المتوكلية ، كما تعرف باسم الجعفرية ، وبني فيها قصر الخلافة الذي يُدعى قصر اللؤلؤة وسمي بالجعفري نسبة إليه ، وانتقل إلى المدينة الجديدة سنة ٢٤٦ .

وفي أواخر حياته أراد تقديم المعتز على أخيه المنتصر ، فطلب من المنتصر أن يتنازل عن العهد فرفض ، فكان بعدها يُحقره ، ويحطّ من منزلته أمام العامة ، وهذا ما أوغر صدر الابن على أبيه . والخوف الدائم من المتوكل لأمور فاتحقوا مع ابنه المنتصر على قتل أبيه فدخلوا عليه في أواخر أيام عيد الفطر وقتلوه في

جوف الليل مع وزيره الفتح بن خاقان ، وبايعوا للمنتصر ، وقد رثاه البحتري بقصيدة إذ كان حاضراً مصرعه ، ولكن لم ينله أذى إذ اختبأ . ومطلع هذه المرثية :

هل علا ، القاطول ، أخلق داثره ... وعفت صروف الدهر جيئاً لغاوره

ويقول فيها :

تغتر حسن ، الجعفري ، وأنسه ... وقوّض بادي ، الجعفري ، وحاضره
لتحل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواءً دوره ومقاصره
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ربع سربه ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وحاذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهنّكت ... على عجل أسآره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به ... أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً ... يشاتها ، والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غضّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومقاصره ؟
وأين عميد الناس في كلّ نوبة ... تنوب ، وناهي الدهر فيهم وآمره ؟
لخفي له مُغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يُحاذره
فما قاتلت عنه المنون جنوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر ، المعتز ، من كان يُرتجى ... له ، وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرض ريب الدهر من دون ، فتحه ... وغيّب عنه في خراسان ، طاهره ،
ولو ، لعبيد الله ، عون عليهم ... لضاقت على وراد أمر مصادره
حلوم أضلتها الأماني ، ومدّة ... تناهت ، وحتف أوشكته مقادره
ومعتصب للقتل لم يُخشِ رهطه ... ولم يخشم أبوابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً ... يجود بها والموت حر أقاسره
أراقع عنه بالبديهي ، ولم يكن ... ليثني الأعادي أمر ليل حاسره

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى
وهل أرتجي أن يطلب الدم والثر
أكان وليّ العهد أضمر غدرة؟
فلا مُلْكي الباقي تراثٌ الذي مضى،
ولا وأل التشكوك فيه، ولا نجا
لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفر»
كأنكمُ لم تعلموا من وليّه
وإني لأرجو أن تسرّ أموركم
مقلّب آراءٍ تُخاف أنانه

ترى القاتك العجلان كيف أساوره
دماً بدمٍ يجري على الأرض ماشره
يد الدهر، والدهر بالدم واتره؟
فمن عجبٍ أن وُلّيَ العهد غادره
ولا عجبت ذاك الدهماء مناسره
من السيف ناضي السيف قدماً وشاهره
هرقم، وعنج الليل سود دياجره
وشاهيه تحت المرهفات وتاثره
إلى خلقٍ من شخصه لا يغادره
إذا الأحرق العجلان حيفت بوادره

الحركات[٢٥]

١ ـ فرّ محمد بن البعيث من السجن، وكان قد جيء به من أذربيجان أسيراً، والتجأ بعد فراره إلى أذربيجان، وقصّر واليها محمد بن حاتم بن هرثمة في طلبه فقوي أمره. فولّى المتوكل على أذربيجان حمدويه بن علي بن الفضل السعدي فسار إلى ابن البعيث الذي اعتصم بمدينة «مرند» وأرسل إليه القوة إثر الأخرى حتى تمكّن بغا الشرابي من محاصرته، ثم أسره، وحمله إلى سامراء فعفا عنه المتوكل بعد أن همّ بقتله.

٢ ـ ادعى محمود بن الفرج النيسابوري النبوة في سامراء وأيّده بعض الناس، فقبض عليهم، وضُرب النيسابوري حتى مات، وألقي أصحابه في السجن.

٣ ـ طلب كيغلغ البطارقة في أرمينيا الإمرة فقبض عليه الوالي يوسف بن محمد وقيّده وبعث به إلى الخليفة، فأسلم وابنه، أما نصارى أرمينيا فقد حاصروا يوسف بن محمد فقاتلهم حتى قُتل فأرسل إليهم المتوكل جيشاً بقيادة بُغا الشرابي فسار إليهم عن طريق الجزيرة فأخذ قتلة يوسف بن محمد فقتل من قتل، وباع من باع، ووطّد الأمن بأرمينيا ثم سار إلى تفليس فحاصرها ودخلها.

٤ ـ وفي ٢٤٠ ثار أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن ابراهيم الرافقي لأنه قتل أحد أثرافهم، وأخرجوه من مدينتهم، فأرسل إليهم المتوكل

داراً جديداً فقبلوه رغم أنه أفلت عليهم، وهو محمد بن عبدويه، وسكن الوضع، غير أن نصارى حمص قد حركوا الفتنة من جديد فوثب السكان على محمد بن عبدويه وأرادوا قتله وذلك عام ٢٤١ فكتب إلى الخليفة المتوكل الذي أمر والي دمشق أن يدعم عامل حمص، وأن يُخرج النصارى من حمص، وأن يهدم كنيستها العظمى.

٥ ـ ظهر في سجستان عام ٢٣٧ يعقوب بن الليث، وكان من قبل مع صالح بن النضر الكناني الذي غلب على المنطقة، ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان استعادها منهم. ثم عاد فغلب عليها درهم بن الحسين، وكان معه يعقوب، ولما كان درهم ضعيفاً لذا فإن المخالفين قدّموا عليهم يعقوب بن الليث.

مَع الـرّوم

أغار الروم على الميناء المصري دمياط عام ٢٣٨، وقد جاءوا في ثلاثمائة مركب، فقتل الناس من وجههم فمروا على بحيرة المنزلة فنجا الرجال وغرق عدد من الصبيان والنساء. وقد أحرق الروم ما وصلوا إليه من دورها، ونهبوا ما استطاعوا نهبه، وقتلوا ما أمكنهم قتله من الرجال، وسبوا حوالي ستمائة امرأة، وحرقوا المسجد الجامع ثم رجعوا دون أن يتعرّض لهم أحد.

وغزا علي بن يحيى الأرمني بلاد الروم على رأس صائفة في عامين متتاليين ٢٣٨ و٢٣٩.

وفي عام ٢٤١ قتلت ملكة الروم «تيودورة» التي عشر ألف أسير من المسلمين، وكانوا قد قاربوا العشرين ألفاً. وقد عرضت الملكة على الأسرى النصرانية فمن قبلها منهم عاش بين الروم، ومن رفضها قُتل فرفضها الأسرى فقتلت منهم هذا العدد. وأغار الروم هذا العام على عين زربة قرب المصيصة وأسروا أعداداً من الزط وذلك بعد طلب الفداء، وتمّ فداء سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومائة وخمس وعشرين امرأة من المسلمين. وغزا بعدها علي بن يحيى الروم.

وفي العام التالي أغار الروم على بلاد الجزيرة من ناحية شمشاط[1] وذلك بعد

(١) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات.

خروج علي بن يحيى، ونهبوا عدة قرى، وأسروا ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، وقاربوا مدينة آمد، ثم رجعوا إلى بلادهم فارّين، ولحق بهم المنطوعة من المسلمين وعمر بن عبد الله الأقطع فلم يدركوا أحداً منهم، وكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يدخل بلاد الروم ثانياً.

أزاح ميخائيل بن تيوفيل أمه عن حكم بلاد الروم، وانهمها في أخلاقها و..... وتسلّم هو الأمر وكان قد كبر.

وفي عام ٢٤٣ وجه المتوكل من دمشق القائد بغا لغزو بلاد الروم فدخلها على رأس صائفة

وطلب ملك الروم ميخائيل بن تيوفيل الفداءة بين المسلمين والروم عام ٢٤٥ ولكن لم تتم إلا بعد عام، وأغار الروم في هذه السنة على مدينة «سميساط» فقتلوا وسبوا ما يقرب من خمسمائة مسلم، وغزا علي بن يحيى الأرمني الروم على رأس صائفة، كما غزا الصائفة أيضاً في العام التالي، وغزا أيضاً عمر بن عبد الله الأقطع في العام نفسه وفي الصيف وكان على رأس قوة، وغزا المسلمون بلاد الروم من طريق البحر إذ سار الفضل بن قارن في عشرين راكباً إلى الفشالية وفتحوها، وكان مما أخذ المسلمون من الروم، أسارى في هذا العام أكثر من ثمانية عشر ألفاً. وتم فداء ٢٣٦٧ مسلماً، منهم عشرون امرأة، وعشرة من الصبيان.

وأغار النجاة على جيش في مصر، وسبوا كثيراً، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين فأرسل لهم المتوكل جيشاً بإمرة محمد بن عبد الله القمي فأقبل إليه ملك النجاة علي بابا في جموع عظيمة، فانتصر المسلمون عليهم - بإذن الله - وأخذ علي بابا أسيراً فحمل إلى سامراء فعفا عنه المتوكل، وجعله ملكاً على بلاد النجاة باعتبارها جزءاً من أملاك الخليفة حسب المعاهدة السابقة. كما جعل المتوكل الأمير محمد بن عبد الله القمي أميراً على المنطقة المجاورة لبلاد النجاة.

الإمارات

لم يتغير شيء في وضع دولتي الخوارج الأباضية والصفرية في بلاد المغرب.

أما في الأندلس فقد تولى عبد الرحمن الأوسط عام ٢٣٨ فخلفه ابنه محمد الأول، وقامت في عهده ثورات في شمالي الأندلس في برشلونة وطليطلة وغيرها فأرسل إليها حملات أحرزت النصر، ووطدت الأمن في تلك الجهات، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٢٧٣.

وأما الأدارسة فقد ملكهم علي بن محمد حتى توفي عام ٢٣٤ فخلفه أخوه يحيى «الأول» بن محمد فتوسعت في عهده الدولة، وعهدت الأوضاع، ولما مات خلفه ابن أخيه يحيى «الثاني» بن علي بن محمد وكان سيئاً فثار عليه الناس واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على مدينة فاس، فأرسلت زوجة يحيى إلى أبيها والي بلاد الريف علي بن عمر بن ادريس فجاء، وأخذ حركة ابن أبي سهل وسيطر على البلاد.

وأما الأغالبة فقد خرج عمرو بن سليم التجيبي بمدينة تونس على محمد بن الأغلب، وانتصر على جيش بعثه ابن الأغلب إليه غير أنه هُزم في المعارك التي تلت ذلك وقُتل. وفتح المسلمون في جزيرة صقلية مدينة «قصريانة» وهي التي كانت مقر الحكم بعد أن كانت «سرقوسة» إذ نقل إلى الأول بعد أن دخل المسلمون الثانية وكان فتح «قصريانة» عام ٢٣٧. وتولى أمير الأغالبة أبو

العباس محمد الأول عام ٢٤٢ فخلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، ولي عهده ثار البربر في منطقة طرابلس وهزموا عاملها عام ٢٤٥ فأرسل إليهم أحمد أخاه زيادة الله فانتصر عليهم وغلب على أمرهم.

* * *

ومع انتهاء حكم المتوكل على الله انتهى العصر العباسي الأول وهو عصر القوة، وبدأ عصر الضعف حيث تسلط العسكر على الحكم فحكموا من وراء الخلفاء الذين كانوا صورة بل العربة أحياناً بيد العسكريين، وأذلوا الشعب وبالتالي بدأت الدولة تتداعى وينهدّ منها ركن بعد ركن حتى تهاوت على أيدي التتار، وقد تراخى أيامها وذلّ أفرادها..... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وسيتبع الجزء السادس
إن شاء الله تعالى

الفهرس

مقدمة عن الدولة العباسية ٥
تقويم التاريخ العباسي ٥
أثر الشيعة والحركات الباطنية ١٣
سيطرة الجند على مقررات الدولة ٢٣
العصبية ٢٧
المظاهر المادية الحضارية ٣٥
الدعوة العباسية ١١
خلفاء بني العباس: ٦٩
السفاح ٧١
المنصور ٩٩
المهدي ١٣٧
الهادي ١٤٩
الرشيد ١٥٥
الأمين ١٧٩
المأمون ١٩٥
المعتصم ٢٢٧
الواثق ٢٢٩
المتوكل ٢٣٥

التاريخ الإسلامي

-٦-

الدولة العباسية